مختارات
فصول

عكس الريح

يوسف أبو رية

٤١

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

٤١

أول يونيو ١٩٨٧

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

عكس الريح

يوسف أبو رية

القسم الأول

● لسعة النار

بعد أن تأكدت من متانة الحبل المربوط بفرع الشجرة العجوز النائم على حطب الدار أحضرت لوح الخشب العريض وثبته بطرف الحبل وطبقت الخيشة عليه وربطتها بقطعتين من التيل وجلست بين الحبلين ودفعت رجلي بالأرض وصعدت الى أعلى وهبطت الى أسفل فانخلع الفرع قليلا وطقطق مرة واحدة بفعل ثقلي عليه وقلت : الآن وقد أعددت « المرجيحة » فماذا أفعل ؟ هل أصعد الى ذكر التوت لأراهم وهم قادمون من بعيد وأكون أول المخبرين بقدومهم ؟ أم أنشغل بعمل ما فيأتون فجأة وأنا منهمك في هذا العمل فأبدو كمن أخذ بحضورهم المفاجيء ؟ وفكرت في أن أسحب الفأس الصغيرة وأقيم لى أرضا أرويها من ماء الترعة ورأيت أن هذا سيجعلهم يقفون مندهشين من أرضى الصغيرة المخططة والمروية بماء ساقية من طين تكون فى أعلى المنحدر ٠

ودخلت الى الدار ، كان أبى لم يزل على فرشته بالصالة خلف الباب الكبير بانتظارهم وزوجة أبى مع واحدة من زوجات أبنائهـا وواحدة من نسوة العزبة متواريات فى دخان الكانون يصففن أصابع المحشى فى الحلة الكبيرة المسودة القعر وكان فخذ ذكر البط السمين يبرز من تحت الغطاء الذى تسيل من تحته رغاوى تقطر على النار فيتغير لونها ، سألنى أبى عما اذا كنت لمحت عربة على الطريق ، قلت : لا ٠٠ وطلب منى أن أفرغ من لعبى لأراعى الطريق ، قلت :

حاضر . ودخلت حجرة الفرن ، وسحبت الفأس الصغيرة والكوز وزوجة أبى كانت قد لمحتنى بطرف عينها فسألتنى عما أفعل ودعكت عينيها المحتقنتين بسبب الدخان ، قلت : ولا حاجة .

وجريت الى الخارج ، تأملت « المرجيحة » مرة أخرى وطردت العنزة التى تشب على قدميها لتقضم طرف الخيشة .

كان زرعنا يمتد ـ وراء السور ـ خضرة شاسعة تنتهى عند صف العبل المختفى فى دخان الهجيرة ، ورأيت « أبو سليمان » عند التوتة البعيدة .

يقرب ورق الذرة من أفواه الماشية ، ويضع كفه فوق عينيه ، وينظر جهة الدار ، شافنى فأشار الى فحركت له يدى يمنة ويسرة وقلت فى صوت لم يسمعه غيرى : لسه . على الجسر كومت التراب الناعم ثم فرشته على هيئة مستطيل ، ومسحته بضغطات خفيفة من كفى واختزنت كمية منه لصنع القناة والساقية وبالفاس صنعت خطوطا صغيرة .

قبل أن ألمح السيارة مقبلة عند أول دور العزبة كنت قد انتهيت من رى الأرض وغرس الأغصان فيها وتركتها لتجف ورحت أفكر فى هذه الليلة التى سأقضيها مع أبناء الأخت الكبيرة المقبلين من المدينة وقلت لنفسى : ها نحن سنعيد الليالى التى قضيناها فى البلد قبل أن يسكن أبى جدتهم فى هذه الدار ، سيضمون لنـا كنبات حجرة الجلوس ونجتمع فوقها لنلعب « جمال المالح » و « أمك فى العش » وسأقف فوقها لأقلد لهم خالتى وهى تمشى بسمنتها كبطة مزغطة ، وسأؤدى لهم دور الولد « سمير » الذى مثلته على مسرح المدرسة .

... وتمنيت لو أن أبى حقق رغبتى فى احضـار أمى واخـوتى فيسكنهم واحدة من حجرات الدار لنكون بالقرب منه بدلا من تركنا

وخدنا مع أمى فى البلد بينما هو يقضى يومه ما بين الطاحونة هناك ثم العودة هنا آخر النهار ، داست عجلة السيارة على حد حقلى الصغير فمالت بعض الأغصان وكان عيال العزبة قد رأوا غبارها وسمعوا صوت موتورها فأقبلوا تاركين ألعابهم على الجسر واجتمعوا فى أسمالهم يتحسسون جسد السيارة الناعم ٠

رأيت أختى فى المقدمة الى جوار السائق ومعها البنت الصغيرة، أما « ميمى » وأخته الكبرى فكانا علـى الكرسى الخلفى العريض ، فتحت الباب الأمامى ٠ وسلمت على أختى ، ونظرت بابتسامة الى البنت الصغيرة ، دون أن أسلم عليها ، وكذلك فعلت مع الآخرين ، كانت البهجة تزغلل عينى مما أحرجنى من تحيتها ، ساروا خلف أمهم ، فأقبل عليهم أبى مرحبا ٠ وخرجت زوجة أبى تمسح يدها بذيل جلبابها وقبلت كل واحد منهم على خده ، والمرأتان اللتان تعملان فى خدمتها وقفتا على العتبة مشرقتين ومحرجتين من الهدوم المتسخة ومن رائحة الطبيخ التى تفوح منها ٠

أمرتنى زوجة أبى باحضار مساند الكنب وجعلتـها بين ظهور الضيوف والحائط الذى تنهار قشرته من كثرة الاحتكاك ٠

ووقفت أنا على العتبة أتابع ترحيب أبى بابنته وسؤاله عن زوجها والأحوال ، وكنت بانتظار أن يلقى الى « ميمى » نظرة فأشير اليه بالقيام لنبدأ لعبنا بعيدا عن الكبار ٠

وفى غفلة منى رأيتـه فجأة فى الجـرن يسألنى عن العجلة الصغيرة التى قال أبى انها ولدت هذا الأسبوع فقلت انها بالداخل وسألنى عن الحمارة فقلت انها بالداخل أيضا وجلسنا فترة تحت جذع الشجرة العجوز ، وكنت أهز « المرجيحة » الفارغة من حين لآخر ليلتفت اليها ولكنه لم يهتم ٠ وسألنى عن الجنينة التى بخلف الدار المقابلة ، قلت هى جنينة « عبد الرحيم » يزرع فيها الجوافة

والمانجو والليمون ، فطلب مني الذهاب اليها لنقطف بعض الفاكهة فقلت لا أستطيع ، فقال ولكن جدى يقول هى ملكنا ، فأوضحت له بأنها بالفعل تعتبر من أملاكنا ولكن القضية لم تحكم بعد ، فأبى الذى اشترى ـ بمشاركة أبيك ـ دور هذه العزبة بحقولها الصغيرة التى تمتد خلفها لم يضع يده على شىء منها ، فرجال هذه العزبة دفعوا أثمانا لها فى المحكمة ، ولابد أن تحكم لأحـد من الطرفين ، وأبى يقول انه سيكسب هذه القضية بحكم الشفعة ، فأرضه الواسعة هذه تعطيه الحق فى شراء الأراضى الباقية بما فيها العزبة ، وأن أصحاب هذه الدور قد دفعوا فلوسها مؤخرا وهم فى صراع مع أبى حتى هذه اللحظة ، فكل يوم يسممون له نعجة ، أو يقطعون له زرعة ، وأبى يقول انهم مسلحون ، ولهذا فقد اشترى بندقية مرخصة · علقها على عمود سريره ، ونحن نخشى أن نقترب منهم ، وهم ينتهزون الفرصة لايذائنا عدا شيخ العزبة الذى يزور أبى فى الطاحونة مرات كثيرة · وعدنا أنا وهو نحو الدار لنشارك البنتين اللتين خرجتا ، فركبت واحدة منهما « المرجيحة » والأخرى وقفت خلفها تدفعها من ظهرها ، والراكبة تطلق صراخا رقيقا به ذعر ودلع ·

وقفت معه جوار الجذع أنظر الى لعبتى بفخر وأتحين فرصـة أن يطلبوا منى ركوبها لأريهم كيف أستطيع دفعها حتى أرى صناديق الغلال فوق السطح ·

على الغداء تحدث أبى مع الأخت الكبيرة عن الأرض وكيف أنه لم يعد يجد الرجال الذين يقومون بفلاحتها وأنهم يفضلون الالتحاق بالأعمال الحكومية المضمونة بدلا من القيام بأعمال الزراعة الشاقة وطلب منها أن تحادث زوجها فى هذا الموضوع ، فهو سينهى معه عقد الايجار وان كان يرغب فى مستأجرين فمن الأفضل أن يقسمها

بين ولديه الكبيرين ، وهمـا ـ بالطبـع ـ خير من الغريب ، فهـو ـ نفسه ـ يفكر أن يعطى أرضه الواحد منهما للاشراف عليها مقابل النصف ، فسنه لم تعد تسمح بالاشراف على الطاحونة والأرض فى وقت واحد ٠

وتحدثت معه حول بيع دور العزبة لأهلها ، فقال ان هذا لم يأن أوانه وسيتم ذلك بعد كسب القضية ، وأنه سيتولى ذلك بنفسه على أن يكون الثمن مناصفة مع زوجها وأن زوجها قال له حين زاره فى دكانه بالمدينة البيع أنت وشطارتك ، وان حصلت على ثمن زيادة فوق الخمسين للقيراط فهو لك ، وقال أبى ان هؤلاء الفلاحين ماكرون جدا ، فلن يرفعوا المبلغ الى هذا الحد ، وأنه ـ هنا ـ يواجههم بمفرده وزوجها لا يعلم ما يحدث معهم شيئا على الاطلاق ، فقالت له البركة فيك ٠

وبعد أن رفعت المائدة طلبوا الشاى ، فتطوعت أنا بصنعه ، فقالت زوجة أبى : انت أفضل من يعمل الشاى ٠

وأمرت زوجـة ابنها بأن تحضر لى وابور السـبرتو والكنكة والأكواب ، جمعت كل هـذه العدة ، ودخلت بها حجرة الكنب ، أشعلت الوابور بعود ثقاب بعد أن عصرت شريطه لأخرج السبرتو من داخله ، ووضعت الكنكة ، وربعت رجلى ، وجلست ممسكا بيدى الكنكة مترقبا فوران الماء الذى سيغلى مع حفنة الشاى التى دلقتها عليه وفكرت اننى سأصحب « ميمى » واخواته البنات الى الغيط لنجمع بعض كيزان الذرة لنشويها بعد قـدوم الليل فى راكيـة سنأشعلها أمام الدار من حطب القطن وسنتأخر فى الزرع حتى يفوت موعد عودتى الى البلد ويذهب « أبو سليمان » بالبقرة والحمارة الى دارنا هناك فلا يعود من الضرورى اللحاق به ، وأبيت معهم هنـا هذه الليلة ٠

وجدت طبقة الشاى المكونة على سطح الماء تنتفخ حتى تصل الى الحافة وكادت تطفح من جوانب الكنكة غير أنى أسرعت بانتشالها من فوق النار واذا بها تسقط جميعها على جانب قدمي المعقودة أمام الوابور ، وأشعر بلهيب النار يسرى فى جلدى ، فأضغط بأسنانى حتى أكتم صرخة الألم فلا يصبح أمامى غير أن أضع كمية كبيرة من السكر حتى لا يحتاج الشاى الى التقليب لأسرع الى ماء الترعة لعله يطفىء هذا اللهيب المتقد فى عصب القدم أضع الصينية أمامهم فوق الحصير ، وأخرج الى أحجار المصلى ، فأنزلها حجرا حجرا حتى تكون القدم المصابة فى عمق الماءالبارد ، وأحس بانطفاء النار لمدة قصيرة ثم تعاود الاشتعال بطريقة أكثر اتقادا ، فأسحب القدم الموجوعة لأجلس على مذود الحمارة تحت جذع الشجرة عاقدا كفى بشدة فوق البقعة التى انتفخت قشرتها بالماء ، وأجز على أسنانى لأكتم الصراخ الحبيس ٠

وسالت دموع ساخنة على خـدى ، وعزت على نفسى جدا ، والبنتان كانتا قد خرجتا بعد أن شربتا الشاى الى « المرجيحة » ركبت البنت الكبيرة وطلبت منى أن أقوم لأدفعهـا ٠ فلم أقدر ، وانفجر البكاء الكامن بصدرى فاقتربت منى وسألتنى : مالك ؟ وأختها الصغيرة وقفت تتأملنى من بعيد مقطبة الحاجبين ثم جرت الى الداخل وسمعت صوتها تخبر أبى ببكائى المفاجىء ٠

وجاءنى صوته من الداخل ينادينى باسمى ، فلم أستجب له ، وخرج « ميمى » واتجه الى قائلا : كلم الحاج ٠ قلت : لا أستطيع ٠ وأشرت الى قدمى ، فانحنى عليها فرأى تسلخها ، وسألنى : من ايه ؟ قلت : سقط عليها تفل الشاى ٠

وكرر أبى النداء ، فاستندت على كتف « ميمى » ودخلت الدار سألنى أبى عم بى ؟ فأجابه « ميمى » : الشاى وقع على رجله ٠

فأجلسنى أمامه ، وبدأ الكل ينظـر فى البقعـة المتسلخة ، تصعبت أختى ، وطلب أبى من زوجته أن تحضر بيضة نيئة ، فقامت متثاقلة الى حجرتها وأحضرت بيضة دجاجة ، كسرها أبى فوق القدم، ومرر عليها اصبعه وقال لى : «كان لازم تاخد بالك» • وسحب رجل البنطلون ليخفى سائل البيضة من الذباب الذى بدأ يحط عليه •

وأمرنى أبى بالجلوس الى جواره ، وأنهى عفرتتى حتى يأتى « أبو سليمان » ليأخذنى الى أمى ، فأملت وجهى الى الجهة الأخرى لأخفى الدموع الغزيرة التى اندفعت من العينين ، ولأكتم الرغبة العارمة فى البكاء •

١٩٨٥

● أم الملك

هذه دارنا الصغيرة التى تسكنها أمى ، أما الدار الكبيرة التى تمتد على شارعين وسط الحوشين الواسعين فهى التى يسكنها اخوتى لأبى بعد أن تركتهم أمهم ، ورحلت الى العزبة لتكون بالقرب من رجلها .

ضغط « أبو سليمان » بساقيه على بطن الحمارة ، فوقفت أمام الباب بالضبط ، ضرب بعصاه على الشراعة ، فخرجت أمى مشمرة الأكمام ، فأعطاها حبل البقرة ، وقال لها : ساعديه على النزول .

فتعجبت أمى ، وقالت مستنكرة : وهل تكسحت رجلاه ؟

فأفهمها «أبو سليمان» بأ نقدمى مصابة بسبب سقوط الشاى المغلى عليها فخبطت صدرها بلهفة : شـــاى !

وعرفت أننى كنت هناك ، فأنزلتنى بيد ، ولطمتنى بالأخرى على وجهى ، فجددت بكائى ، وانطلق صراخى عاليا فى الشارع ، فرمتنى فى الصالة ، وقبل أن تعود لتمسك حبل البقرة ، صفعت قفاى بضربة أضاءت المكان مرة واحدة ، ثم انطفأ .

ها أنا وحدى فوق الحصير متكورا على نفسى ، أرفع البنطلون عن مكان الاصابة وينتفض جسدى فى نشيج لا ينقطع ، حتى ظهر شـــبح « أم الملك » يستر نور المغرب الواقف على الباب ، وقفت

تلهث فاردة ذراعيهـا على الضلفتين ، وفوق رأسـها طبق صاج ، وسألتنى : أمك فين ؟

قلت وأنا أمسح دموعى : فى الزريبة تحلب البقرة ٠

وتقدمت نحوى تجرجر رجلها المشلولة حتى انهمدت على الحصير متأوهة ، لما التقطت أنفاسها نظرت جهتى بوجهها العجوز ، وبربشت بعينها ، ومدت اصـبعا مجعـدة على موضع الحريق فى قدمى ، وسألت : حرق ؟

قلت كالمستغيث : آ ٠٠٠

فضربت على صدرها بحنان : ضنايا ٠

ودخلت أمى وعلى رأسها مترد اللبن ، حيتها بمساء الخير ، ودخلت الى حجرة الخزين ، فتحدثت اليها « أم الملك » بصوت عال : وايه حرق رجله ؟ فلم تسمع كلمات أمى الغاضبة حتى عادت، فكررت عليها السؤال ، فقالت أمى : اننى صايع ولن أنفع فى مدارس طالما لا أكف عن الجرى وراء أب جحود لا يدخل علينا دارا ، وجمعت أصابع كفها تحت ذقنها مهددة : ان كنت تنفع ! ٠

فقالت لها « أم الملك » : حرام عليك ٠٠ فى الصبح بدرى قبل ما أجمع جبنة جماعة « مكاوى » أطلع الى الزرع القريب ، وأجمع له الندى من الأوراق فهو ينفع فى علاج الحرق ٠

وقالت أمى : يعالجه أبوه ٠٠ ان سأل عنك فأنا لا أعرف شيئا فى الدنيا ٠

وتهيأت مرة أخرى للبكاء ، فربتت « أم الملك » على كتفى بطيبة ، وقالت لأمى : اخزى الشيطان ، وقومى هاتى لنا الجبنة ٠

وقامت أمى مـرة أخرى الى حجرة الخـزين ، وتركتنى مع

« أم الملك » التى أخرجت من جيبها حبة الكرملة ، وأعطتها لى وقالت مشجعة : مصها ·· وروق دمك ·· مص ·

وفى هذه اللحظة دخل « أبو سليمان » وقبع الى جوارنا منتظرا أن تقدم له أمى العشاء ، ودخلت أختى مشعثة الشعر بعد أن فرغت من لعبها وقفت أمامى تتأملنى ، وتنظر بشفقة الى جرحى ، ولم تتكلم ، ثم لبدت بهدوء بالقرب منى وهى تلعب باصبعها فى أنفها ، ومدت « أم الملك » يدها لتعبث فى شعرها مبتسمة ·

١٩٨٥

● وسوسة

١

أبى هناك فى الزرع مع رجاله ، وأنا هنا على الحصير مربعا أمام طبق الجبن والفلفل المهروس ، وهى فى المرحاض تطلق ضراطها الذى يقلب المعدة ٠ وأطل الشيطان الذى يسكن الصدور ، وهمس فى أذنى : هذه فرصتك التى لن تتكرر ٠٠ فارتخت يدى الى جنبى وشعرت بالعرق على جبهتى وقلت : لا ٠٠ أنا خائف ٠

وتذكرت أمى التى تعيش وحدها هناك ، ورأيتها وهى قائمة فى ظلمة الفجر تختم صلاتها ، وتشكو الى ربها قلة حيلتها ٠

ورأيتها وهى تدعو الشيخ ، الذى قعد فى الصالة ، أمامه الكتاب الأصفر القـديم واضعا بين صفحاته منديل أبى ، ويردد بلا انقطاع التراتيل الغامضة التى تزلزل القلب ، وتستحضر الجن المختفى فى جدران البيت ، ينهى تراتيله بعد غياب طويل ، وراء عين مغمضة ، لا ترى دنيانا ، وترى العوالم المجهولة التى يسكنها الجن القادر على نقل الرجل من مكانه حتى لو كان فى آخر الدنيا ، يغمس الشيخ قصبته فى الحبر الأحمر ، ليخربش كلاما مهوشا على الورقة الصغيرة ، ومن حقيبة الجلد المهترئة يخرج الخرق التى يلفها على هيئة حواية ، وأرى أمى وهى تحفر لها تحت عتبة الباب ، حتى اذا مر أبى من فوقها ، فلا يعود الى امرأته القديمة أبدا ، ويظل معنا فى دارنا ، يرعانا ويحافظ عـلى عاداته التى تحيى الدار ، صحوه المبكر الى الجامع ، طبق القشدة واللبن وبراد الشاى ، وصـوت

القرآن يتردد من المذياع الموضوع على أرضية الشباك الذى يطل منه برأسه ، ليصدر أوامره الى رجاله الواقفين فى الشارع ، يجمعون حبل البقرة ,والجاموس ، ونعير الجاموس ، وجعجعة الجمل ، تأتى من قضبان الشباك الينا ، نحن النائمين فى الحجرة الداخلية ، واستيقاظنا واجتمعنا حوله ، وسؤاله الصارم لنا عن صلاة الصبح ، ونمدد أمامه ـ أنا وأخى ـ حصيرة الصلاة ، ونصلى متململين كارهين الماء البارد ، صلاة خضوع للأب الجالس بقميصه الأبيض وصداره وعمامته المحبوكة على رأسه الصغير ٠

وخرج الصوت مرة أخرى ، وفح فى أذنى : هذه فرصتك التى لن تتكرر ٠ قلت : أنا خائف ٠

وكانت هى فى المرحاض ، تحادثنى من الداخل : هات رغيفين من المشنة ٠ وأرد عليها : جبت عيش « ملدن » ٠ قالت : أسنانى لاتحتمله ٠ قلت لها : أبلله بالماء ٠

وقمت بفرائص سائبة ، أتحرك نحو الحنفية الزنك الموضوعة على فنطاس صغير بحجرتها ، ولفحتنى نسمة باردة هبت من الجرن عبر سلك الشباك وكانت الحجرة نظيفة ومرتبة ، والناموسية مرفوعة ، ومعقودة فى منتصف السرير كنجفة ، وتذكرت تلك الليلة ٠

كان جمع القطن ، وتأخرت هنا مع الرجال ، لأرى العمل الليلى ، أكوام بيضاء هائلة ٠ وأكياس جديدة بها رائحة الجوت . يقف الرجل بداخلها ، ويشد حواف الكيس ، ويدك رجله بقوة . بينما الآخر يرفع القطن من الأكوام ليضعه تحت القدمين وأبى بقميصه الأبيض ، وصداره اللامع ، يتحرك هنا وهناك ، يجس باصبعه الأكياس المدكوكة ، ويأمر بمزيد من الحشو ولما انتهى العمل

نام الرجال فى حجرة الفرن وصحبنى أبى لأنام معه فى حجرته ، فأدخلنى فى كيس جديد ، وقال : انه يحميك من الناموس ٠

وتمـددت الى جوار هذه الحنفيـة ، وصعـد هو مع زوجه ، وانسدلت عليهما الناموسية ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من الشعور بالخيانة ، والم ينغلق لى جفن حتى سقطت الضفدعة الكبيرة الباردة على وجهى ، فصرخت بأعلى صوت وجاءتنى شخطته القوية من داخل الناموسية : نام نامت عليك حيطة ٠ وتردد صوتها اللاذع : دلع عيـال ٠

ولم أنم حتى استيقظ أبى قبل أذان الفجر ، ورأيت عريه فى الطشت وسط الحجرة ، وهى جالسة وراءه تدعك له ظهره بالليفة والصابون ، ويتردد فيما بينهما حوار خافت ٠

انحنيت على الحنفية وفتحت صنبورها فوق الأرغفة الجافة ، ولففتها فى الفوطة المعلقة على المسمار ، وعدت لأضع الأرغفة فوق الحصير الى جوار الأطباق ٠٠ وسمعتها تسأل من الداخل وهى تطلق هواءها المكتـوم فيخرج رفيعا وممطوطا فى صوت لا نهـاية له : خلاص ؟ قلت : خلاص ٠

وامتدت يدى الى قطعة الجبن ، وخرجت بها الى الجرن ، ورأيت أبى هناك وسط الزرع رافعا الشمسية البيضاء الزاهية ، وأمامه الرجال فى الصفوف والظهور المحنية تسير أمامه فى حركة موحدة ، ورفعت الباب الخشبى القديم لمخزن التبن ، وطنت فى أذنى نحلة هاربة من الخلية القريبة ، هششتها بعيدا عن وجهى ، وخطوت فوق العتبة ، وبالقرب من كومة التبن ، وجدت الرشاشة نائمـة بلونها الأخضر الكالح ، نظـرت ورائى ، فلم أر غير الدار المقابلة مغلقة النوافذ ، وشـجر الكافور كابسـا على سطحهـا فى نومة كسلانة ٠

وفتحت البزبوز ، فدفع السائل الأبيض فى خط نحيــل ، وصفر السائل المحبوس عند خروجه من الثقب الضيق . فاضطربت يدى لحظة ، وأغلقت المحبس من جديد ، وخفت أن يرى أحدهم هذا السائل المدلوق على التبن فحركت قدمى ، ونثرت التبن فى كل اتجاه لأخفى الأثر وعدت ٠

وكانت هى لا تزال بالمرحاض تنزح الماء ، وسمعت طرقعاتها المنتظمة ، وهى تنطل الماء من الاناء الى موضعها الملوث ، فعجلت باعادة القطعة مرة أخــرى فى الطبق ، ومسحت كفى فى الخرقة القديمة الملقاة فى الركن ، وربعت رجلى أمام الأطباق ، وقلت ستجلس هى فى هذه الناحية ، فدورت الطبق ، حتى تصير قطعة الجبن التى بللتها من الرشاشة أمامها ، وانتظرت ، وخرجت هى تجفف الماء الذى يقطر من أصابعها فى جوانب الجلباب ٠

وسألت : انت ما كلتش ليه ؟

فقلت : أنا منتظرك ؟

وجلست أمام القطعة بالضبط ، وقالت : طبخت للرجالة ، ووفرت الباقى لعشاء أبيك ٠

وقلت : أى لقمة ٠

ولفت الطبق حتى جعلت قطعــة الجبن المرشوشة أمامى ، وقالت : كل ٠٠

ونظرت الى نظرة أفزعتنى ، ووقفت اللقمة فى حلقى ، قالت : كل ٠٠ ورفعت قطعة الجبن الى فمى ، ودستها بالقوة وهى تصرخ فى وجهى : كل ٠٠

١٩٨٥

● ظل الرجل

وقف « أحمد أبو علي » على الباب بعفريتته المزيتة يحمل على صدره بطيختين كبيرتين ، وسألني عن أمي ، فأشرت الى الردهة الداخلية ، وضع البطيختين الى جواري • وقعد على الحصير يجفف عرق جبهته بكمه ، وأشار الى ساقي الممددة والملفوف عليها خرقة من جلباب قديم ، وقال : سلامتك •

قلت : الله يسلمك •

ونادى على أمي باسم أخي الكبير ، فخرجت اليه وبيدها غلافة من ورق الذرة وأخبرها بأن أبي قادم الى هنا بعد المغرب ، رفعت أمي ذراعها الى ضلفة الباب وقالت : بعد الهنا بسنة • فقال : ما على الرسول الا البلاغ •

وأراد أن يقوم ، فحلفت عليه ألا يمشي حتى يشرب الشاي ، فجلس مرة أخرى ، بينما دخلت هي تعد له الشاي ، سألني : لم نعد نراك في الطاحونة • فقلت له : كما ترى فأنا مريض • فقال : أختك جاءت اليوم وحصلت على القرش من أبيك •

وأنا أعرف هذا فقد اتفقت معها على أن تذهب سرا الى أبي لتخبره بأنني مريض جدا ، وأحتاج الى البطيخ ، فهو لم يفكر أبدا في زيارتي ، لأنه غاضب على أمي منذ أن رفضت الرحيل الى العزبة،

وقالت له : أنا لا أترك البلد أبدا · ففضل أن يرحل مع زوجته القديمة . ولم يدخل علينا الدار من يومها ·

وكانت أمي قد حرجت علينا الذهاب الى دار اخوتي لأبي ، ومنعتنا من اللعب مع أولادهم وكنت ـ يوما ـ قد انتهزت نومها في القيلولة . وزحفت برفقة أختي الى الشارع وتسلقنا عتبة الدار الكبيرة ، وقضينا ساعة في الفراندة الملحقة بآخر الدار ، نبني الدور الصغيرة بالأحجار ، ونشكل العرائس من الطين ، حتى سمعنا صوتها ينادي من وراء السور ، لما خرجنا اليها ، كسرت على ظهورنا الجريدة التي كانت بيدها ، وارتفع صراخنا حتى جاءت الخالة التي تسكن في الشارع المقابل ، وأنقذتنا من يدها ·

وخالتي هي التي تفك قيد الأخ الكبير ، حين لا يطيع أوامر أمي ، فيذهب الى المقهى ويسهر أمام التليفزيون حتى منتصف الليل، ثم يعود ، ليتسلق الحائط الخلفي للدار · فتمسكه أمي ، وتظل تضربه بعنف ثم تربط رجله في عمود السرير حتى يطلع النهار فتأتي خالتي وتوبخها ،وتقول : ماتت الرحمة في قلبك · وترد عليها أمي وهي تبكي : طالما هو عديم الأب ، فليمشي على حل شعره ·

ومنذ أن عدت من العزبة بقدمي المحروقة ، وهي تعالجني بكل الوصفات التي ينصح بها الجيران والأقارب ، فمرة تضع على الاصابة قطرات الندى ومرة تحرق عليها ليف النخيل ، ومرة تدهنها بمرهم أحمر بلون النار ، وأسدلت لي ناموسية سريرها ، وراحت ترعاني بحنان ، وفي كل مرة تجلس فوق الكنبة ، ترفع الناموسية قليلا ، وتركز بكوعها على الوسادة ، وتظل تحادثني بود ، وتسألني : هل تحب أن تظل في البلد الى جوار جدك وأخوالك ومدرستك والأولاد الذين تلعب معهم ؟ أم تحب أن تكون في العزبة الى جوار أبيك ؟ وكل مرة أرد عليها بحسم : أحب أن أكون في العزبة الى جوار

أبى • وتقول : ولكن فى العزبة ناموس ومشوارها بالنسبة للمدرسة بعيد • وأجيبها : أبى سيشترى « كارته » أذهب بها مع أخى الى المدرسة ، سيعطينى فى كل صباح المصروف الذى أشترى به الساندوتش والعسلية • وفى الآخر تصمت ، وتظل مركزة عينها المفتوحة فى نور النافذة ، حتى تتراخى أجفانها ، وتثقل رأسها ، وأسمع شخيرها يتردد بوهن من رأسها المائل على الكف المرتكزة على الوسادة •

بعد أن ذهب « أحمد أبو على » تركت أمى عملها بالردهة الداخلية ، وجلست الى جوارى تعصر الليمونة فى الكوب الممتلىء بالماء ، ثم راحت تقلبه ليذوب السكر المكون فى القعر ، وتحادثنى : وأخيرا سيأتى أبوك الينا •

قلت لها : اننى أريد أن يكون معنا على طول •

وكلمتها بصراحة عن مشاويرى السرية اليه عند الطاحونة ، ووصفت لها حزنى الشديد حين كنت أجرى وراء حمارته لما يترك عمله آخر النهار ، وأنتظر أن يرفعنى خلف ظهره . والكنه دائما كان يرمى لى القرش • ويأمرنى بالرجوع • وأشعر بالحقد على المرأة الأخرى ، كما كنت أستشعره قبل رحيله معها الى العزبة حين كنت أرفع هدومه المزهرة النظيفة من دارنا هذه لما ينوى قضاء أسبوعه عندها ، وأراه هناك على الكنبة تحت النافذة ، وهى الى جواره بثيابها النظيفة عاقدة منديل رأسها على شعرها المبلل النائم على ناحية ، وهو يستقبلنى ببرود وكأنه لا يعرفنى ، وقلت لها : اننى كل ليلة أدعو الله أن يقصف عمرها •

فطبطبت أمى على ظهرى ، ومدت لى يدها بالكوب الذى يطفو على سطحه تفل الليمون وقالت : شطارتك أن تنتهز فرصة مجيئه الليلة •• وتفاتحه فى الموضوع •

وسألتها : أى موضوع ؟ قالت : قل له أنك تريد أن تسكن معه فى العزبة ٠

وقلت لها : لكنك لا تريدين ذلك ٠ قالت : لا ٠٠ أنا أريد ٠

واندفعت لأحتضنها وأقبلها على خدها ، ورفعتنى على صدرها، ورأيت الدموع على خديها مسحتها بظاهر كفها وسألتنى بجدية : هل ستتحمل بصحيح الحياة هناك ؟ قلت لها مهللا : ان أبى كان حدثنى قبل رحيله ، وقال اننا هناك سنكون بالقرب من زرعنا ، سنؤجر هــذه الدار ، وحين تريد النزول الى البلد فدار اخوتك واسعة ، كما أنك تستطيع النزول عند جدك ٠

قالت : المهم شطارتك الليلة ٠٠ قل له يا أبى ان أمى تتعب مع أخى الكبير فهو لا يسمع لها كلمة ، ويدور مع الأولاد الفاسدين، ولا يعود الى الدار حتى آخر الليل ، وقل له اننى لا أستطيع المذاكرة الا بالقرب منك ، وأن لنا أختا صغيرة لابد أن تتربى فى ظلك ٠

وأجبتها : حاضر ٠٠ حاضر ٠

طبطبت مرة أخرى على ظهرى ، وأخذت منى الكوب لتعود الى عملها بالداخل ٠

بعــد قليل دخلت أختى من الباب وبين ساقيها عود قصب تمتطيه كركوبة ، وأخرجت لى لسانها ، وسألتها : ألم يعطيك قرشا لى ؟ قالت : لا ٠ فقربت البطيختين منى ، وجعلتهما فى حضنى ، وأمى حين رأتها ، زعقت فى وجهها وقالت : ألا تكفى عن اللعب فى الشوارع ٠ وشدتها من ذراعها ، وأمرتها بأن تسند لها السلم لتمسك حمامتين من البنية ، وخرج الحمــام من مخبئه يصوصو وينثر الريش الخفيف فى وجه أمى ٠

١٩٨٥

● أرض الغربة

ها هى العربة تنحرف عند « الهدار » وتعطى ظهرها للسكة الحديد ، يجرها حصان بان هيكله تحت الجلد المشدود ، ينكت الهواء من منخاريه ، فيحرك التراب النائم على الطريق ، وصاحبه يطقطق من جانب فمه ، ويضربه بالكرباج الطويل الرفيع الطرف فوق النتوءين الراكزين على جانبى الكتف .

وها هى أمى فى المقــدمة الى جوار الحــوذى قد كفت عن البكاء ، وجلست محتضنة زجاجتى الزيت سارحة الفكر . ثابتة النظــرة ، وأنا وأختى فى أعلى الحمــولة بين الألحفة والمراتب ، مستمتعين بنومتنا الوثيرة ، وبمتابعتنا للطريق بين الزرع والسكة الحــديد .

ولما اقتربنــا من أول دور العــزبة خرجت أمى عن صمتها الحازم . ونظرت الى أعلى قليلا لتقول لنا : استعدوا . وأنا كنت قد تأهبت بالفعل ، فهذا هو جدار الدار الذى تطل طاقاته الضيقة المعتمة على الجسر ، ومررنا على شباك حجرة الفرن الذى ســود الدخان قضبانه والقش المدفوس فى احدى طاقاته ، ومررنا على شباك الحجرة التى ينفتح بابها على الجرن وعلى شجرة الكافور العجوز ، وشد الحوذى لجام حصانه ، وقال بعد طول صمت : هوووس . ثم شد اللجام مرة أخرى ليدخل العربة ما بين الدار وسور الجامع الذى لم يكتمل بناؤه . وأمام الباب كان أبى يفترش الحصير الى

جواره زوجه واثنان من رجاله والمنقد والصينية عليها براد الشاى، وأكواب في قعرها تفل ٠ وقام الرجلان ، واتجها الى العربة ، وظل أبى جالسا مع زوجه فوق الحصير ٠

ومد « أبو سليمان » يده الى أمى ٠ فأخذ منها الزجاجتين ، وركنهما أسفل الجدار ثم عاد ليمسك يدها ويساعدها على النزول ، وأمى لم تحاول أن تنظر الى أبى أبدا ٠ و « سيد الشرقاوى » ذهب الى الجهة الأخرى من العربة ليفك الحبال التى تجمع الحمولة تحتها ٠

ودخلت أنا وأختى وراء أمى الى الدار ، وظـــل أبى مشغولا بالحديث مع زوجه ، وكان قد أدار وجهه ناحيتها حين اقتربت أمى من الدار ٠

وقفنا فى الصالة ، استدارت أمى الى وقالت بعصبية : يعجبك هذا ٠٠ لم يكلف نفسه القيام أو حتى الترحيب بنا ٠

ووقفت فى مكانى ، وتحركت أمى الى الداخل تعاين الحجرات، وتمسح بكفها الدموع التى سالت بصمت على خديها ، ثم عادت الينا وهى تمسح وجهها كله بطرف جلبابها وأشارت الى الحجرة الأولى ، وقالت : هنا سنضع الكنبات وسرير الأولاد ٠

وسار « أبو سليمان » وراء أمى بعد أن وضع القفص الذى يحتوى على المواعين ، وتجاوزا حجرة زوجة أبى المفتوحة ، والتى يسطع فى نور نافذتها بياض الفرش والناموسية ويبرق فيها لمعان الدولاب والحصير الجديد ، وأشارت الى الحجرة المجاورة ، وكانت مظلمة ، لأن نافذتها الوحيدة مفتوحة على زريبة الغنم ، وقالت : هنا نضع السرير الكبير والدولاب ٠ وانتقلت أمى الى حجرة الفرن بينمـــا خرجت أنا وأختى الى الجرن فوجدنا الحوذى و « ســـيد الشرقاوى » قد أنزلا حمولة العربة الى الأرض ، وصارت العربة فارغة وخفيفة يتحرك حصانها بين العريش بحرية ، وكان أبى ـ من

مجلسه فوق الحصير ـ يصدر بعض الأوامر واضعا ذراع يده اليمنى على ساقه المثنية ٠

فتحت دولاب اللبن الصغير الذى اسودت خضرته الثقيلة ، وقتلت بعض الصراصير التي تلهو على الأرفف ، وشممت في داخله رائحة اللبن المتخثر ، ونظفته براحة يدى من التراب ٠

وانتقلت الى الدولاب الآخر ، وكان صغيرا أحمر اللون ، فشددت أختى بعيدا عنه ٠

وقلت لها : هذا دولابى ٠

قالت : ولكنه دولاب أخينا الكبير ٠

قلت لها : من اليوم سيصير دولابى ، لأنه رفض المجيء معنا ، وفضل البقاء في دار جدنا وقلت لنفسي : سأرص فيه كتبى وكراريسى ، وأعلق على بابه جدول المدرسة ، يكون لى مفتاح أغلقه وافتحه على مزاجى ٠

وفتحت أبوابه ، وجلست على الرف ، وقلت لأختى : اغلقى على الباب ٠ وفرحت بالظلمة التى شملتنى بالداخل ، وشعرت بأننى فى عالمى الحبيب الذى ادخل فيه حين اسحب الغطاء على وجهى عند النوم ، ورحت احلم بحياتى هنا ، وقلت يارب اهدى ابى واجعله يرضى عن أمى المسكينة ٠

وفرحت لما تصورت هذه الدار بعد أن تفرشها أمى ، وعندما يقبل الليل سنملأ القلل ونضعها فى الصينية فوق مذود الحمارة ، ونفترش الحصير أسفل الجدار ، ونشعل النار فى التبن وسط الجرن لتطرد الناموس ، وسنقعد جميعا حول الطبلية ، نأكل ونتكلم ، وفى الصبح أرفع حقيبتى ، واذهب الى المدرسة مع أولاد العزبة الذين سألعب معهم تحت نور القمر بين الأشجار الممتدة على جسر الترعة ٠

فتحت بـاب الدولاب ، فرأيت بقعا كثيرة من الضـوء الملون ظلت الفترة حتى بهتت واستعدت وضوح المكان · ورأيت زوجة أبى تقوم من جـواره لتدخل من باب الدار ، ونزلت عن الرف ليرفع « سيد الشرقاوى » الدولاب الى الداخل ، ومررت بالقرب من أبى فسألنى عن أخى فقلت له : رفض المجىء معنا ·

فقال غاضـبا : « هـذا أخرة دلع أمك له ، سأرسـل له « أبو سليمان » ليحضره على ملا وشـه · وبدأ فى اطلاق الشتائم علينا ، وعلى أمى الدالوعة التى لم تحكم رباطنا ، والتى لا تعمل الا على عصيانه ، والتمرد عليه ، وأشار الى رفضها العنيد للقدوم لتعيش مع الزوجة الأخرى فى دار واحدة ، وقال انه من الآن سيعرف كيف يشكمها ، وسمعت صوت أمى يزمجر من الداخل ، تردد كلاما غاضبا ومكتوما لا تريد الافصاح عنه ، ورد عليها أبى : خلى نهارك الأغبر يعـدى ·

فتركته ، وسرت أقطع أرض الجرن متجها نحو السور الذى يسيج الزرع الأخضر الذى تبص أوراقه من أعلاه ، وقعـدت تحت التوتة الصـغيرة التى زرعها أبى بعد اكتمال هذه الدار ، ليجلس تحت ظلها كل عصر متأملا « مارس » الأرض الممتدة الى أول أرض الاصلاح البعيدة المنتهية بصف غائم من العبل الطويل ·

وسمعت صوت أبى يزداد عنفا فى الرد على زعيق أمى المنطلق من الداخل · فابتعدت أكثر ··

وسرت بموازاة السـور ، نحو القنـاة الصغيرة التى تقف على انحنائها الكافورة السرحة المرتفعة بعيدا بمحاذاة صناديق الغـلال المنتصبة على سطح الدار المدهونة بالجير الأبيض وابتعدت أكثر ·· أتأمل الطحالب فى الماء القليل الصافى الذى تمر عليه نسمة الهواء

الخفيفة ، فتصنع أمواجا صغيرة كالكرمشة على اليد العجوز ، ونظرت مرة أخرى جهة الدار ، ورأيت أبى يمد رأسه الى الداخل ، ويحرك يده مهددا ، وهو فى قعدته مستندا الى الحائط ، والرجال يروحون ويجيئون رافعين الفرش من الأرض الى حجرات الدار وابتعدت أكثر ، وسمعت صرخة أمى ، فنظـرت ، فلم أجد أبى فى مكانه ، ورأيت الرجال يهرعون الى الدار ، وذهبت الى هناك ، ووجدت أبى يقف نافر الوجه ، يركل أمى برجله وهى ممددة على الأرض ، رأسها على عتبة الحجرة ، محلولة الشعر ، وباقى جسمها مبعثر فى الصالة . وجلبابها محسـور عن أفخاذها ، فانحنيت عليهـا ، أجمع ثوبهـا المرفوع .

وكانت زوجة أبى فى حجرتها تبدو مشغولة بعمل ما ، وارتميت أنا وأختى عـلى صـدر أمى ، نهـزها من كتفهـا ، وصرخت فى « أبو سليمان » : بصـلة .

فجرى نحو حجرة الفرن ، وأحضر بصلة ، فدغها على ركبته ، ثم قربها من أنف أمى التى انتفضت فجأة ثم سقطت مرة أخرى فى الغيبـوبة .

١٩٨٥

● السقوط على الأرض

هل سيبعث الله من عنده ثعابين وحشية تخرج على من أكوام التبن القديم فى ظلمتى هذه التى لا أرى فيها كفى ؟ وأنا لولا الاحساس بأنفاسى المترددة لقلت انه الموت . والنهاية . ولكنى أرفع راحتى الى فمى وأنفى وأشعر بسخونة النفس الخارج من جوفى . وأنا أسمع صريخ الاستغاثة من وراء الباب وأسمع السباب والزعيق، وضربات اليد المتجمعة فوق بدنها اللين ، وأخشى على حملها من السقوط • وقدمى تستجيب لرغبة العقل . فتتحرك نحو الباب . اذن فأنا أتحرك موجوعا ، ينقح الألم فى أعضاء جسمى المتهالك ، أنا حى . وأرى من خصاص الباب ـ فى ضوء الصبح الشاحب ـ ما يحدث بالخارج •

البـاب الكبير المغلق ، وطرقات المغيثين من ورائه قوية ، ومتعجلة ، وفى الردهـة يقف الأخوان متصلبين ، مستندين على الحائط ، عاقدين الذراعين على الصدر ، ويد العجوز ـ أبى ـ العجفاء الميتة تنهال بالضرب ، وقد نفرت عروقها الزرقاء ، وجمد عظمها . ليهوى بآخر قواه على ظهر المرأة المحلولة الشعر ، الممزقة الثوب ـ فتبدو الكدمات على الصدر المباح ، وعلى العنق ، وفوق الأصداغ أكف محمرة ، مطبوعة ، راسخة كنقش قديم ، وعلى الأرض تبعثرت عباءة العجوز ، وشال عمامته ، وهناك على عتبة حجرة نومه ، وقفت الطفلتان مذعورتين ، ينفض بدنيهما بكاء يقطع النفس ، والدموع سائلة على الخدود ، وملتحمة بسائل المخاط والأفواه الصغيرة مفتوحة

على آخرها تطلق أصوات الرعب وقد بدت فى ظلمتها أسنان صغيرة خضراء ٠

وأنا هناك فى حبسى مكدود الجسم ، متيقظ العقل ، لا أدرى هل هذه نهايتى ؟ أم حبس الى حين ينظرون فى أمرى ؟ قد يصلون الى أن يأتى العجوز بحبل سميك ، يلفه حول رقبتى ويظل يضغط ، ويضغط ، بكل الغل المكبوت بصدره ، حتى يعصر العنق تماما ، ويميل على صدرى ميلته الأخيرة ، وتظل العينان الجاحظتان بفعل الخنق بارزتين خارج المحجرين ولا تريان شيئا البتة ، فتتكدس فيهما ظلمة أخرى كثيفة ، لا يكون فيها نفس ، ولا حركة ولا ألم ٠ ربما يكتفى بأن يرسل أحد الأخوين ، فيجرجر عريى المفضوح الى البحر البعيد فيربط حول العنق الحجر الثقيل ، ثم يسقطنى فى الماء الغويط ، تحت دوامة الجسر الهادرة ، ويتركنى أبقبق وحدى تحت ماء مستنفذ الهواء ، وأسقط ، أسقط حتى طين القاع ، وأغوص مرة أخرى فى ظلمة جديدة غير مألوفة ، محاطة بماء لا نفاذ منه ، ويكون العجوز هنـــاك أعلى الجسر يرقبنى ، ويفرك يده تشفيا ، ويشير اليه من بعيد ، ليعود الى الدار بدونى ، وباحساس الراحة بعد الخلاص من عار ينكس الوجوه ، ويكسر العيون المعتادة على الكبرياء ٠

وأنا كنت نبهتها الى أن العجوز فى الأيام الأخيرة لا يطيق النظر فى وجهى ، ربما يكون قد عرف شيئا ، يوم الجمعة ، بعد أن عدنا من الصلاة ، وافترشنا أرض الردهة لنجتمع على طبلية الغداء ، رأيته ينظر بجانب عينه الكليلة الى فخذها الذى نام على فخذى المربعة تحت الطبلية ، وأنا سحبتها بهدوء ،وهى لاحقتها بالحاح ، دون اعتبار لنظرته المضببة وراء غشائها المبلول بماء لا ينتهى سيلانه تحت الجفن ٠٠٠٠٠

وفى ذلك الصبـاح حين عاد من صـلاة الفجر . وكانت هى بغرفتى ، لم تنتبه لموعد عودته ، دفع الباب برجله ، ودخل ، وهى خرجت من بابى مبللة البدن بشعرها المنكوش ، وتلم بعثرة صدرها المفكوك ، وسمعته يسألها عن سبب وجودها فى غرفة هذا الولد ؟ وسـمعتها تجيب بوثوق ، وبتحـد ، انهـا استيقظت عـلى صراخ الكابوس ، فجاءت ترفع عنى يده الجاثمة لئلا يخنقنى . وهو بلع قناعته ، ودفن شكه ، وقال : طب جهزى لنا لقمة .

وتركها مشغولة باعداد الطعام ، وسمعت دفعه المحاذر لبابى ورأيت فى اطباقة أجفانى ، رأسه الذى طل من الضلفة المواربة ، وشعر رأسى المبلول فى عرق الجبهة ، لا أدرى هل فضح لقاءنا ؟ أم أكد معركة مع كابوس رهيب كما ادعت له ؟ وأنا افتعلت الاستغراق فى النوم فمكنت الغطاء من حولى ، ورددت أصوات النوم . وأنا لا أعرف كيف حدث ذلك معها ؟ فى كل مرة حاولت دفعه ، وهى التى شجعتنى على الفعل وكل مرة أقول لها : كفى . ولكنها فى كل مرة تسمع فيها آذان الفجر ، وصوت ماء وضوئه على حنفية الصالة ، وردة البـاب القـوية من وراء ظهـره ، حتى تترك الطفلتـين فى استغراقهما تعيد بعثرة شعرها ، وتشطف الوجه الصابح ، وتدلق العطر من زجاجتها الصـغيرة المخفيـة فى طوايا هـدوم الدولاب ، واسمع خطوها الهين ، ومعالجتها لباب غرفتى ، وأنا أزداد انكماشا وأدارى وجهى بوسـادتى المطوية ، وأزداد تناوما ، ولكنها تصر بجنون تهز الكتف بحنو يحرك الماء الراكد فى بدنى الصغير ، فلا أصحو ، وأشم عطرها ، فأطرده من أنفاسى ولكنه يتسرب من تحت الجلد ، يدخل فى مسامى الى دمى السخن ، وتسرح بيدها الصغيرة العرقانة على وجهى ، وعلى جانبى العنق وتهبط يدها لتفتح أزرارى، فيصبح صدرى مباحا لأصابع متوترة عفرتتها الرغبة العارمة ، وترفع عنى جانب الوسادة التى سال عليها عرقى فتميل لتشم بأنفها القلق،

وأستحيل أنا الى ذرات عطر ضائعة فى الهواء ترغب لو تنشقها فى شمة واحدة ٠

ويتحرك فى الرجل ، وكل مرة أخشى الاستجابة ، ولا أقدر على النظر فى وجهها ، فى كل مرة أرى فيه الشيطان الأحمر ، وفى العين الحانية الشبقة أرى أبى الواقف بيننا بعباءته السوداء كخفاش الليل، وأسمعه الى جوارى ، فوق سريرى ، يهتز فى بكاء العاجز وأسمع استغاثاته بالأجداد والآباء وبأمى التى ماتت ـ وتخبو الرغبة ، وتموت ، مع تردد أصوات الصلاة من الجامع القريب ، ولكنها لاتخضع أبدا للهزيمة ، تظل مصرة على الفعل ، فتقوم لتخلع عنها جلبابها ، وتسحب جلبابى من تحتى . وأرى بياضها المغوى فى ضوء صباح يطل علينا من ثقوب النافذة ، ولا تعود الى فراشها الا بعد أن تطرد نزقها تعود بعيون تلمع فيها أضواء فرحة متحققة ، وبضفائر مفكوكة على قناة الظهر المروى ، رافعة جلبابها الذى أهمل على الأرض ٠

واقترن عندى آذان الفجر ، وأصوات العجوز فى المرحاض ، ودفق ماء الوضوء على ذراعيه العجفاوين ، بخطوها الحريص ، وبأنفاس عطرها ، وبتهييج الدم الزاعق فى عروقى ٠ ولا أدرى كيف بدأ الأمر بيننا ؟ ربما منذ كنت أسهر فى دار أحد الزملاء ، أيام كنا نترك الكتب مفتوحة ، لنصنع الشاى وندخن سجائرنا الفرط ، لنسبح فى حكاياتنا عن البنات ، ويكون لكل واحد منهم حكاية مع بنت ، واحد مع جارته . وواحد مع قريبته التى تزورهم فى الدار وآخر يحكى عن زوجة عمه وكيف رآها تستحم فى الطشت ، منتصبة فى جوفه بلحمها الأبيض الشاهى ، تميل فى كل مرة لترفع الكوز ، وتقوم لتصب الماء على شعرها فيسيل لامعا فوق الجسد كله ، وهو فى مكمنه نائم على بطنه فوق حطب السطح ، لينظر من السقف لا يحفل بالشمس التى أمسكت رأسه دون رحمة ، فيقـــوم الى سروالها المنشور على الحبل ، ويدخل به عشة الدجاج ، ليكنسيه

بالنحم الابيض الشاهق ، ويعنف فيه ليطلق منه التأوهات المسترحمة، وكانوا يضحكون منه ، ومن خيبته . وينظرون الى صمتي الكئيب ، وتدور ابتساماتهم الخبيثة . على جوانب أفواههم . لأنهم يذكرون حكايتى مع حمارتنا التى كنت أعود بها . فوق حمل البرسيم ، فى شتاء قطع الرجل من الطرقات . ومررت على المقبرة المهجورة وطلع لنا من تحت الأرض الحمار الذكر الذى أطلق نهيقه ، وعفرنا بتراب الطريق ، وضربه صاحبه ليواصل المسير بحمله الثقيل ، ولم يكف عن الالتفات الى الحمارة التى رفعت ذيلها وحركت فكيها الضخمين . تلوك لسانها بشبق مخزون ، وحرك هذا الرغبة العمياء ، فانتحيت بها وراء واحد من الشواهد الكبيرة ، غير حافل برعب المقبرة ، وبعد أن انتهيت رأيت الشاهد الرابض يزوم بشراسة ، ويطق الشرر من عينه الغادرة ، فأجرى تاركا الحمارة ورائى تشمشم ورق الأرض ، وتعود الى الدار بعد أن رمت حملها هناك .

حكيت لهم هذا ، ولم ينسوه أبدا ، انما يبدون لى رحمة متكلفة ، لانى فارغ من قصص المغامرة الحقيقية ، ثم يلمز أحدهم اليها ، ويقول : كيف تتركها وهى ملك يمينك ، وأنت تعرف عنها ماتعرف، ويلمحون الى شبابها الغض قبل أن تدخل دار أبى ، وكيف كانت الحكايات تتناقل عنها وعن اختلائها فى حقول الذرة بالشاب الذى رفضه أبوها لفقره ، ثم منحها للعجوز الثرى نظير ايجار فدانين ، بعد أن هلكت يده المحتاجة ، وكيف ارغمت على الزواج من أبى الكهل ، البلد كلها تعرف ذلك ، وقد مصمصت شفاهها عجبا ، والعجوز أبى لا يهتم ، أدخلها الدار ، وغلق البـاب والشـباك ، وصك أذنه عن كل مايدار ، وربما لا يعرف أنها كانت الرغبـة الحامية لجدعان البلد ورضيت بقسمتها ونصيبها وأولدها العجوز طفلتين ، بعد أن عزل ولديه الكبيرين ، وجعل لكل واحد منهما دارا مستقلة على أطراف البلد ، وفرغت حجـرات الدار الكبيرة

وصرت أنا وحيدا بينهما ، لا يهتم بى العجوز ، ولا يسأل ان كنت أطعمت فى يومى أم لا ؟ نسينى تماما ، فأنا منكفىء على كتبى ، سارح مع الزملاء . لا يهتم ان كنت أبيت فى غرفتى أم أننى أنام فى دار زميل . ولا يتذكرنى الا حين أقف أمامه فجأة أطلب المصروف . أو أطلب تمنا لكتاب جديد . ونبهنى الصحاب اليها. وكانت هى فى غفلة ، ولا أدرى ان كانت مهتمة بدارها الجديدة الواسعة ؟ أم فكرها هناك فى حقل صديقها القديم ؟ كل ما أعرفه هو ما أراه من صحوها المبكر ، وعملها الدؤوب فى الدار ، ما بين عشة الدجاج والزريبة وغسيل المواعين والفف البنتين ، والكنس ، وتنقية الحب وطحنه ، واعداد الطعام للعجوز ٠

ورأت ذات مرة ــ وقفتى المستغرقة أمامها وانتبهت من غفلتها ، لتلم صدرها المدلوق فى فم الطفلة ، ولتصيح فى وجهى : مالك واقف كالصنم ؟ ورأت ارتباكى ، وانسحابى من أمامها الى الشارع ، مضطرب الخطو ، التفت اليها من وراء ظهرى وفى عينى رجاء : أنا لا أقصد ٠ وكان خوفى من العجوز يهن ارادتى ٠ وفوجئت بأنها مقبلة على . على غير العادة ، تهتم بى تدخل على حجرتى، لتسألنى ما اذا كان لدى غيارات تحتاج الغسيل ، وفاجأتها مرة على طشت الغسيل . تقرب قميصى من أنفها ، وتطلق تنهيدة قصيرة ٠ وأنهت الحذر الذى كانت تبديه أمامى . فلا تهتم أن تغلق وراءها باب حجرة النوم ، وأصحو فى هدوة القيلولة لأراها وحيدة في فراشها ، رافعة ذيل جلبابها الى صدرها لتبدو أفخاذها ساطعة في غبش الحجرة ، وأميل برأسى الى الأرض . وكأننى لا أرى ٠ وتجلس على درجة السلم مهملة ، لا تهتم بعرى أفخاذها ، ولا بسروالها البادى حتى العين الغريب الذى يمر من الشارع ٠

وكانت الليلة التى طرقت فيها بابى حاملة كوب الشاى لتضعه أمامى وأنا منكفىء على السطور ولا أدرى هل قصدت الى هذه

اللمسة التى كهربت بدنى . وانحناءتها بالصدر المفتوح على آخره لأرى الغواية المحبوسة خلف شفافية الثوب ؟ وسألتنى : عاوز حاجة تانى ؟

وساءلت نفسى : هل هذه عناية أم بولدها ؟ أم أنها تعلم بالنار التى أشعلها الأولاد فى جسدى ؟ أم هى رغبتها غير المحققة ؟ ورفضت سؤلى الأخير ، وقلت : ولماذا معى أنا بالذات ؟

حتى تحقق ذلك صباح يوم شتوى كافر البرد لأصحو بعد خروج العجوز على الأنفاس اللاهثة فى فراشى ، وأقوم فأجدها الى جوارى ، وكان دفء ، وكان قرب ، وكان اثم . ارعبنى طعمه عقب وقوعه وقلت لن يحدث هذا مرة أخرى ، ولكنها تعودت على ذلك . وتعود جسمى على صحوة الأذان ، وأصوات المرحاض ، ودفق ماء الوضوء ، وخطوها الحذر ،وعطر أنفاسها ، وكل مرة حاولت التخلص من وسوسة الشيطان الذى يقبع في دمى . وكنت بعد كل مرة أخبط رأسى في الحائط حتى يسيل الدم ، وتعودت الهروب من البيت وتعودت السهر مع الزملاء ، وطالت سرحاتى معهم ، وتقلقل لسانى فى حوارى . وهم لا يعلمون سرى المخبوء ، ما زالوا يسخرون من واقعة الحمارة . ويدفعوننى للاثم معها وهم لا يعلمون أنه وقع ، ولا أقدر على اعلان فحولتى أمامهم ، كما يفعلون . وشحوب بشرتى لم يفضحنى ، ولا سرحاتى الطويلة . وأبى أمرنى بالانقطاع عن السهر خارج الدار ، وهددنى بقطع لقمة العيش ان فعلت ، وعرفت أنها وراء ذلك وعدت ، وقلت : فلتكن قويا فى دفعها .

ولكنها تعلن عن ولهها بى ، وتسدر فى ذلك ، لا تقيم للعجوز وزنا ، وقلت : ربما سلوكها تجاهى يعلن عن شىء . وكل مرة أكذب نفسى ، وصرت كأننى أنا صاحب الدار ، تسألنى عن طبيخ اليوم .

تهتم بنظافة حجرتى وترتيبهـا ، وتهتم بهندامى ، وربمـا أهملت حاجات الرجل الذى نحيا فى ظله ٠

وكنت قررت الهرب نهائيا ، ولكننى قلت : ها هى قد حملت : وربما يمنعها ذلك عن غوايتها ٠

ولكن آذان الفجر ينطلق ، وأصوات المرحاض ، ودفق الماء ، فاسمع خطوها الحذر ، وأشم رائحة عطرها ، وتأتى بأصواتها اللاهثة تقترب وترفع جانب الوسادة ، وتسعى يدها على جبهتى وعلى جانبى الرقبة ، وحول الأذن وتفك أزرار القميص ، وأحس يدها المتوترة المبلولة فوق شعر الصدر وأكتم أنفاسى ، وأفتعل النوم . دافعا يدها بقوة الى بعيد ، وتقوم ، لتنضى عنها جلبابها وتسحب يدها ثيابى عنوة وأرى لحمها فى القميص الزاهى . وأرى انتفاخة البطن تحته ، فترتد الرغبة ٠ ونقوم منتفضين على دفعـة البـاب القوية ، لنجد العجوز مفكوك العباءة ، بيده الخشبة الغليظة ومن وراء شاله المحلول أرى الشاربين العظميين للأخوين ، بعيون مستطلعة دهشة ٠

كان يعرف ، ويكتم فى صدره . لم يذهب هذه المـرة الى الجامع ، بل انعطف الى دار الأخوين وجرجرهما الى هذه الحجـرة ليكونا شاهدين على فعلنا الحرام ، ويبرك على الأخوان . والعجوز الذى ذهب عقله يسحبها من شعرها المحلول الى الردهة . ويكبس عليها بآخر أنفاسـه ٠ وأنا مصلوب على الجدار ، اتلقى الضربات من أربع أيـد حية ، تضمر قوة بهيمية مكمونة لهـذا الصـباح العاهر . ويتناول أحدهم السكين الذى برق فى ضوء الصبح الوليد المطل من المنور ، ويسحبنى الى هذا المخزن ٠

وها أنا قابع يأكلنى الرعب من ثعابين جهنم التى قد تنطلق على من التبن القديم ، وتنهشنى الخشية من أسياخ محماة فى النار المرتقبة ، تنغرس فى لحمى ، فيهترىء ، وتتساقط عظـام هيكلى

لتكون نهاية عذابى . ولكنى ما أزال أسمع صراخها بالخارج ، وأنظر اليها من خصاص الباب ، تتكالب عليها أصابع عجوز ناشفة ترفع يد الهاون لتهوى بضربة أخيرة كأنها تريد أن تقيء جنينها ، ويدها في حرص مستميت ترفع بطنها . تجمعه في ضمة لتمنع السقوط ، ويطغى على صريخها صوت الطرقات العنيفة واهتزازات الباب الخارجي، وراء سيل الجيران ، الذين استيقظوا على استغاثتنا ربما ينجحون في كسر الباب لينقذوها من اليد العظمية التى تلفظ أنفاسها .

١٩٨٥

القسم الثانى

● آخر الليل

دار الخياطة التى يتكدس فوقها حطب قديم تتشـابك عليه خيوط العنكبوت تفصلها عن دارنا خرابـة يكـوم فيها رجال أبى سباخ الزرائب ·

نراها كل صبح تعمل على الماكينة وسط الصالة وراء الباب الكبير المفتـوح على وسعه وفى العصر تقبع على المصـلى الناعمـة المزركشة مع أمها التى تدهن شعر رأسها الأبيض بالحناء ــ تسقط على عينيها الطرحة البيضاء . ومن تحتها ترقب الماشين وترد عـلى تحيتهم باقتضاب ، ولا تقول لأحد : تفضل ·

وأنا حين وقفت أمام عودها الناحل رافعـا ذراعى الى أعـلى تذكرت كلام أمى عن هذه الغريبة التى سكنت شارعنا ، لا يدخل عليها غير نسوة عجائز من قريتها يفتن عليها كل سوق ، ليربطن المطايا فى حديد شباكها . ويشربن القهوة مع أمها على عتبة الباب · كانت أمى تقول : المسكينة فاتها القطار ·

ولكننا نحن أولاد الشارع كنا نخاف أمها ، فهى لا تسمح لنا باللعب أمام دارها وان أخطأ أحدنا وضرب الكرة عاليا فتشتبك فى حطبها القديم ، نتحايل للحصول عليها دون أن نطلب ذلك منها ·

وابنتها لا تزور أحدا فى داره ، تأتى اليها النسوة ليفصلن قمصانهن وجلابيبهن ويعاملنها برهبة وحذر ، فهى تحدثهن بوقار ،

ولا تشاركهن فى حلقاتهن الليلية أمام الأبواب وكن لا يذكرن اسمها الا مسبوقا بكلمة « أبلة » .

انتهزت انشغالها بوضع المازورة من القدم حتى الحصر فتلصصت بعينى فى المكان لأرى الحجرة التى عن يسارى ممتلئة بالمواجير والمشنات والمناخل المعلقة على الحائط ووابور عليه حلة مسودة القعر ، وقلة مشطوفة الحلق نائمة على بطنها ومدلوق من بوزها حصوات ملح .

ولما انشغلت بتسجيل الأرقام فى الدفتر المكور فى درج الماكينة رأيت الباب المفتوح على حوش تلمع الشمس على ريش دجاجة ، وتزغلل فى الماء العطن بالاناء المكسور من ناحية . وهناك بالقرب من زاوية التقاء الحوش بسور ميضة الجامع رأيت بابا نحيلا مربوطا بحبال مهترئة ، كان يستند باعياء على حائط الجيران الذى تبرز قوالبه الحمراء ، وبالداخل تحت حزمة الشمس التى تضىء البناء الصغير ـ رأيت أمها فوق الحجرين المتسخين تنزح الماء من الابريق الأسود الى ما بين الفخذين العاريتين ، فرددت عينى سريعا ، وخفت أن تلمحنى عين العجوز .

قالت وهى تجمع الزرار المفتوح على بطنى فى العروة : أمك فى الدار ؟

ـ راحت الطاحونة ، ستعمل قرصا لجدى ، وأنا طلبت منها أن تأخذنى لأعيد عليه ، فأنا لم أره من يوم أن رفعه الرجال فى الخشبة .

ـ وسع رجلك .

فأوسعت لتمرر المازورة بينهما ، فاحتك ظاهر كفها بأسفلى فتحرك الدم النائم فى أفخاذى ، وتهت بعينى القلقة ، فرأيت أمها

التى وقفت على الحجرين ترفع سروالها . فثبت نظرى بين الألواح الكبيرة التى ترفع السقف .

عبرت أمهـا باب الحوش ، وهى تهز جلبابها الأسود حول الخصر لتحكم وضع السروال . خفت أن تمسكنى فجأة التلطمنى على وجهى لأنها رأتنى من يومين ألعب « الميس » مـع أبناء أخى أمـام بابها . وطردتنا خشية أن تسقط الكرة فى شباكها . وبعد أن جرينا بعيدا حدفنا الطوب على سطحها . ولكنها لم تنظر الى . دخلت الحجرة التى لم أر من ملامح صورها المعلقة فى ظلمتها الخفيفة غير بياض عمامه كبيرة وشارب معقوف ..

خرجت الأم من هذه الحجرة بالشاش على كتفها . وكفاها على رأسها تعقدان طرفى المنديل الأسود . ومالت على بغتة لتقول محذرة: أنا لا يهمنى أبوك ، ولا حتى المأمور . ان عدت لحدف الطوب مرة أخرى سأقطم رقبتك . وقلت لها : لست أنا الذى حدف . ولكنها دخلت الحجرة التى عن يسارى لتخرج بمقطف منثور على حوافه الدقيق يغطيه جلباب مرقع .

قالت وهى تستعد للخروج من الباب الكبير : أنا ماشية

ـ بالسلامة

ـ بالليل تربسى باب الحوش .

ـ سلمى على الجماعة

ونزلت عن العتبة . واختفت فى الشارع .

وقلت فى نفسى هذه المرأة كما يقول أبى عنها : يقتلها الكبر . فهو بعد كل حصاد ، يدفع أحد رجاله لرفع المقطف به القمح أو الذرة ليعطيه للجارة الغريبـة ، وهى فى كل مرة ترجع الرجل

بمقطفه ، يتصعب أبى ، ويخبط كفا بكف ، وتقول له أمى : عملت ما يرضى الله • وأبى يتحمل منها الكلام الجاف ، ولا يزعل أبدا •

وهذه ابنتها بعد أن انتهت من القياس جلست تكور قطعا من بقايا الأقمشة •

سألتها : خلاص ؟

ـ أقعد •

وشدتنى من ذراعى لتجلسنى الى جوارها فوق كرسى الماكينة وقالت : أمى راحت بلدنا •

ـ أبوك هناك ؟

ـ الله يرحمه •

ـ أبى فى العزبة •

ضربت كرة القماش فى جوانبها،وحشرتها فى الدرج الضيق، ولمحت قطعة صغيرة تحت قدمى فاستندت على فخدى ، ورفعتها بين أصبعيها ولفتها على الكرة وسألتنى : تسهر معى الليلة ؟

ـ أنا أسهر مع الأولاد عند الجامع •

ـ وأنا أسهر لأنهى هدوم العيد •

جعلت كفيها الناشفين عـلى خدى ، وثبتت طرف أنفها على أنفى •

ـ سأحميك •

ـ أمى ستفعل ذلك اليلة العيد •

ـ سأبدأ فى بيجامتك الجديدة ، وألبسها لك •

ـ صحيح ؟

ـ والنبى ؟

وقامت تجمع قماش بيجامتى المخططة ، وتعقده بقماشة صغيرة ، وتركته تحت رأس الماكينة الأسود . ثم قامت وفكت شعرها المضفر بعد أن نشرت الاشارب الأزرق على السلك المربوط بين الجدارين ، غرست أصابعها فى الشعر الأسود الكثيف ، وراحت تهرش بعصبية ، فبدت كجنيه .

دخلت الحجرة بظهرها ، وخرجت بيدها « حلة » فارغة وبالأخرى وابور جاز تتعلق برجله الحمالة الحديد التى وقعت على الأرض .

انحنيت عليها ورفعتها بيدى محاذرا من السواد ، ودخلت وراءها الحوش .

بعد أن أخذت الحمالة منى ، قبضت على كتفى بكلتا يديها ، وضغطت ببطنها على وجهى وقالت : رح ألعب .. وتعال بعد المغرب .

١٩٨٥

● حب الزعيم

كنت أنا فى المقدمة أرفع راية المدرسة الخضراء وكان هو فى الخلف وسط حلقة من الفلاحين والتلاميذ يركب الفرس البيضاء ، ويرقصها على ايقاع نشيد « والله زمان يا سلاحى » وفرقة موسيقى المدرسة تعزف بقوة وفرح صاخب . وكنت أريد الاقتراب من الحلقة غير أن النـاظر الذى يجلس امامنا مع معلمى الصفوف أمرنا أنا وزميلى « لطفى » بأن نظل رافعين الراية هكذا فى مواجهة شريط السكة الحديد خشية أن يمر القطار فجأة فلا يعلم الزعيم أية مدرسة هذه التى خرجت لتحيته .

وكنـا من موضعنـا نرى وراء سور السكـة الحـديد مبنى المستشفى الأصفر يقف فى شرفاته وعلى نوافذه الأطباء والتمورجية والمرضى يصفقون على ايقاع الموسيقى التى تأتيهم من بعيد مبتهجين بمشهد الفرس التى اندمجت فى رقص مجنون ، وقد راح الفلاحون الذين تركوا زرعهم وخرجوا الى طريق المصرف يصفقون ويرقصون بملابسهم الممزقة ، ونزل الى الحلبة كثير من نسوة عمال الدريسة اللاتى غادرن دورهن القريبة من المدرسة أما أنا فكنت قد خرجت من بيتى مبكرا لابسا « المريلة » المكوية وتحتها « الشورت » الذى ألبسه فى الاستعراضات وفى حفلات المدرسـة ، وكانت أمى قد صنعته لى من بقايا جلباب أبى الكشمير وكنت قد وضعت المنديل الأبيض النظيف فى جيبى . وأتمت أمى مسح حذائى الذى برق بشدة فى نور الشارع ، وحاذرت أن يغيره التراب أو يلوثه الوحل،

وقد أمدتنى أيضا بقطعة قماش قديمة أضعها فى حقيبتى لأمسح بها حذائى اذا اتسخ . وكانت قد قصت لى أظافرى بالليل بعد أن حممتنى والبستنى ملابس داخلية جديدة . وقبلت خدى بحب وفردت على الغطاء وقالت برجاء وهى تمسح على جبهتى « الهى أشوفك زيه يارب» ورفعت كفيها الى السماء ٠

وحينما أيقظتنى فى الصباح المبكر قامت بغسل وجهى وقالت أبوك منتظر لتفطر معه وكان بغرفة نومه يستمع الى نشرة المذياع ، قلت لها بدلع : لن أفطر معه سآخذ معى اليوم ساندوتش كباقى الأولاد ٠ فدست يدها فى صدرها وأعطتنى شلنا ، وهمست لى فى أذنى : لا تقل لأحد حتى لا يحرمك أبوك من القرش ٠

حصلت على الساندوتش ، ورأيت الناس يمشون باضطراب فى كل اتجاه عيونهم زائغة تنظر من حين لآخر نحو بوابة المحطة. ورأيت الرجال على المقهى القريب من محطة الأتوبيس يطالعون الصحف ٠

والتلاميذ تزاحموا حول بائع الفول ، والفتيان تزاحموا حول بائع الجرائد فانخلعت من الزحام بحذر حتى لا تتسخ « المريلة » أو يدوس أحدهم ـ بغفلة ـ الحذاء البراق وأردت أن أعبر مزلقان المحطة فمنعنى العسكرى الراكب على حصانه وقال : لف من الناحية الثانية ٠

ورأيت الزينات المعلقة فوق « البلوك » واللافتات على بنائه ترحب بالضيف الكريم والأعلام كانت فوق أعمدته ترفرف فى الهواء بفرح ، وعلى الجانب الآخر من المزلقان انطلقت الميكروفونات صاخبة تذيع خطب الزعيم ، ومن حين لآخر يقطعها صوت يطلق الترحيب والثناء على الضيف المقبل ، وكان الرصيف فارغا الا من الكراسى المذهبة المصفوفة تحت المظلة بانتظار رئيس المدينة

والمأمور . وعدت بظهرى الى الطريق المسفلت حتى التقيت بـ« لطفى» قادما من قريته عند نهاية ترعة المستشفى وكان مدرس الفصل قد اختارنا لحمل الراية . نظر الى هندامى وقال « انظن أنه سينظر اليك أنت بالذات » وجدنا المدرسين يقفون على بوابة المدرسة يحثون التلاميذ على الدخول بسرعة ولم نجد الباعة الذين يصطفون تحت سور المدرسة يبيعون السندوتشات والحلوى . والناظر كان يتحرك فى كل مكان رافعا عصاه الطويلة فى يده ويصيح من وقت لآخر : بسرعة ياولد !

وفى طابور الصباح وقف الولد يقرأ النشرة من الجريدة فقرأ خبر مرور الزعيم على بلدنا حيث ينتهى به المطاف الى المدينة البعيدة التى انتصرت يوما على عدو أراد احتلال الوطن وقرأ الولد الآخر الذى خرج من الصف رافعا ورقة بين يديه حكايات عن شعب هذه المدينة البطل وحسدت هذه المدينة وقلت لنفسى « ليتنا نحظى بعدو آخر يأتى الينا يوما ، فنقاتله حتى الموت ويهزم فى معركة مشهورة فيأتى الزعيم خصيصا الينا ، وينزل فى شوارعنا،ويخطب فينا ، وترانا الدنيا ونحن بين يديه نصفق له ونهتف باسمه » .

ولما أخرجونا الى الساحة الواسعة أمام بوابة المدرسة طلعت علينا فجأة هذه الفرس البيضاء القوية ، صرخ التلاميذ وأوسعوا لها المكان ونفضنا « مرايلنا » من غبار الأرض الذى أثارته .

بعد أن خرجت الى السور وقفت مرة واحدة وعادت بعد أن سمعت الموسيقى تنطلق من فرقة المدرسة فأوسعوا الها حلقة وكنت أود لو أريح يدى قليلا وأقف فى الحلقة أصفق للفرس ، وقال « لطفى » ، هذا « ابن غنى » سيجرى مع القطار كما يفعل كل عام قلت : أعرفه . فقال مفاخرا : هو ابن عمدتنا القديم باع ما ورثه عن أبيه ولم يبق غير هذه الفرس .

قلت : اننى أراه كثيرا يمشى بها فى شوارعنا وعلى رأسه الشال الأبيض النظيف وبيده العصا الصغيرة يتدلى من تحت جلبابه حذاء أصفر له رقبة . وقال « لطفى » لا أحد فى بلدنا يركب الفرس غيره .

وقلت له : أبى يستطيع أن يشترىَ واحدة . وارتعشت أبداننا لهدير الحناجر الذى سمعناه آتيا من جهة البلد ، واضطربت القلوب لصوت الديزل الذى يمر وحيدا قبل قطار الزعيم قلنا هذا هو الدليل واختلطت الصفوف واشرأبت الأعناق التى تطل من شرفات المستشفى وترك الفلاحون الحلقة وتقدموا فوق زلط السكة الحديد يلوحون بأيديهم .

وتقدم صفنا الى الامام ولم أعد أرى الناظر ولا المدرسين ولم ينتبه « لطفى » الى فتدالت الراية على وجهى وكنت مهتما بأن أجعلها بعيدا لتتيح لى النظر . وصارت الموسيقى أكثر صخبا ، ولم تعد ايقاعا منتظما بل صارت أصواتا عالية تدق دون انتظام ، فارتبكت الفرس وجعلت تنفر ، وتنفخ بمنخاريها فى حين ربض «ابن غنى» فوقها يشد لجامها ويضربها ضربا رفيقا بالعصا ليهمد جسمها الذى اشتعل بالايقاع .

ومرة واحدة كان القطار الطويل أمامنا يمشى وئيدا ، كان مهيبا ، يسير جامحا كفرس أصيلة يعرف أى الرجال يحمل.وبحثت عيوننا بلهفة عن العربة المكشوفة ورأيناها فى الوسط لها شرفة بدرابزين يلمع ذهبه فى الشمس ، ووقف بين الرجال شامخ الطول يرتدى البدلة السوداء التى نراها فى الصورة ، يلوح بيده عاليا ويحيى بطريقته المعهودة وعلى وجهه الرهيب بسمة ودود والرجال حوله يحملون الكاميرات التى تبرق من حين لآخر،واقترب الناس ووقع كثير من الأولاد على الأرض وبعد أن انتهت العربات انتبهت الى سقوط الراية على الأرض ولم أعثر على « الطفى » وكان

المدرسون يحاولون أن يجمعوا الأولاد مرة أخرى ولكن الجميع كانوا ينظرون الى ظهر العربة الاخيرة التى كادت تختفى بين الأشجار المصطفة على جوانب الشريط وكانوا يشيرون الى هناك حيث يمتطى « ابن غنى » فرسه ويجرى بمحاذاة العربة المكشوفة يشير للزعيم بعصاه الرفيعة . ومكثنا مدة نرى رفرفة شال عمامته وسط زوبعة التراب حتى تلاشى القطار .

وظهر الناظر من جديد مغبر الوجه ينفض كتفى الجاكتة رافعا عصاه الطويلة صائحا في وجوهنا : ادخل يا ولد ادخل .

وفجأة سمعنا فرقعة عالية تأتى من طريق المصرف فجرى الفلاحون ومرق بعض التلاميذ بين أيدى المدرسين واتجهوا نحو الصوت واستطعت أن ألف الراية فى يدى وأجرى مع الأولاد قال واحد منهم : هذا صوت رصاص . وخاف بعضنا وأراد العودة ولكنى جريت مع الآخرين فى حماية الفلاحين الذين يجرون أمامنا .

وانفرج الغبار عن « ابن غنى » منحنيا على فرسه الممدة على الأرض ولما اقتربنا وجدناه يفك السرج عن ظهرها وهى على جنبها مرفوعة الأرجل ومنخارها فى التراب المبلل بالسائل الأبيض ولما رفع السرج بانت بطنها الممزقة ولمعت أمعاؤها الحمراء ثم اندفعت فى صوت آخر الى تراب المصرف وفى هذه اللحظة همدت الأرجل المرفوعة وارتاحت على الأرض وأخرج المنخار نفخة طويلة قوية طردت التراب الناعم حوله فلطم « ابن غنى » خديه وبدأ فى العويل .

١٩٨٥

● النافذة

التقيت بالأولاد عند السنطة التى تمد ظلها على الجرن وعلى الشارع الكبير ، كنا نتسمع لحديث النسوة المجتمعات حول الجذع ، ونفزع للصوات الذى يأتينا من الدار القريبة من « الفاخورة » واقترحت عليهم أن نلف من باب الدار الكبيرة لنتسلق سور الحوش، وننظر عن قرب ، وشدتنى واحدة من النسوة قائلة : اقعدوا .. لا تذهبوا الى هناك .

فشد الأولاد ذيل جلبابى من يدها ، وانفلت منها .

لما أردت المروق من الباب الصغير للجرن المقابل لدارنا فى الشارع الآخر سمعت صوت أمى تحادث واحدة من الجارات ، فاختفيت وراء الباب ، وانحنى الأولاد من خلفى ينظرون ، وسمعتها تكرر ما قالته لنا صباحا ، كيف صحت على الصوات بعد الفجر ، فذهبت الى هناك . سبلت عين الولد المفتوحة ، لأنها وجدت أمه قد حزمت وسطها وراحت ترقص بشعرها المفكوك وعينها الذاهلة ، وأبوه كان يبكى ويحاول الامساك بها ، ليهدىء من روعها ، وهى لا تكف عن الصوات وطلب المزيكا للعريس الصغير .

لما توقفت أمى عن الكلام ، تأكدت من دخولها الى الدار ، ففتحت الباب ، وعبرنا الى الشارع الذى كان يتردد فيه الصوات الساقط من فوق « مقاعد » الدار الكبيرة الى صمته ورأيت « ابن عزيزة » يقعد على العتبة يدق على قطع الشقافة بزلطة كبيرة .

قال واحد من الأولاد : سيحاول هذا الولد اللحاق بنا ٠
فقلت : اننا لا نريده ٠

و « ابن عزيزة » هو وحيد امه التى تعاون زوجات أخى فى عمل الدار ، تملأ الجرار والأزيار بالماء وتذهب بالحب الى الطاحونة وتغسل الهدوم ، وتطعم الدجاج ، وتترك زوجها فى حجرتها الراشحة بجوار معمل الجبن يدخن الجوزة ، ويمص سنة الأفيون ،وهو يحصل على ايرادها ، وايراد بناته اللاتى وزعهن للعمل فى الدور ، وترك الولد يسرح وراء أمه فتتركه فى خرقه البالية على العتبة طول النهار ليدق الشقافة ويجمع النوى وغطيان زجاجات الكازوزة . وكلما حاول الاقتراب من حلقاتنا طردناه ، ومنعناه من اللعب معنا . وكنا نجتمع حوله نرفع جلبابه من خلف لنرى عريه ، لأننا نعلم أنه يسير بدون سروال ٠

وقف « ابن عزيزة » حين اقتربنا منه ، ونظر الينا بتوسل ، فقذفنا قطع الشقافة المنثورة على العتبة بأقدامنا ، وقلنا له : وسخ٠

ودخلنا من الباب الكبير ، وقلت للأولاد : لا يفتن على أحدكم فيذكر لأمى انى دخلت دار اخوتى لأنها تمنعنى من ذلك ٠ قالوا : لا تخف ٠

كانت الظلمة الشحيحة تعم الصالة الطويلة ، وعبرنا حجرة زوجة أبى المهجورة وباب الزريبة المفتوح على الصالة ، وحجرة نوم الأولاد ، والفتحة المؤدية الى السلم الذى يرقد تحته الفرن المسود الحواف ٠ ودخلنا الى الصالة الأخرى ، وعبرنا من تحت المذياع المعلق فى الوسط والذى يتدلى سلكه الى البطارية الموضوعة أمام باب المرحاض وزوجات أخى كن فى عمل نشط بين الحلل والوابورات، فلم يلتفتن الينا ، حتى صرنا عند الفراندة المفتوح عليها باب حجرة الجلوس ، وسمعنا أصوات حضرة الذكر ووقفنا الحبل القديم الملتف

على المسمار فى الباب الخشبى القصير ، وسرنا بين الدجاج المنطلق فى الحوش ، وتسلقنا الشجرة التى نخرها السوس فجفت أوراقها، ووقفنا فوق السور بمواجهة دار « أبو دهدة » ورأينا نسوة كثيرات لابسات الهدوم السود يزدحمن فى ردهة الدار ، والرجال بالخارج وقفوا حول « أبودهده » الذى مال بوجهه الى الأرض يمسح دموعه بمنديل كبير ٠

قال محمد : نزحف قليلا لنكون أمام الشباك ٠

قلت : لن أطيق النظر ٠

قال على : جمد قلبك ٠

وزحفا أمامى ، وزحفت أنا وراءهما بحذر ، وأشار على : انه هناك ٠٠ أنظر ٠ ورأيت من وراء سلك الشباك الجسد الصغير يلمع المـاء فوق بشرته الصفراء والرجال حوله وسط مستطيل الضوء الذى يسقطه الشباك فى الحجرة المظلمة ٠ كان واحد منهم يعمل بالليفة والصابون تحت القماشة البيضاء التى تستر عورة الجسم الصغير ، والآخر ينحنى على الاناء الموضوع على الأرض ، ليغرف منه بالكوز ، بينما صوت المقرىء ينطلق من الداخل خلف كومة السواد المتجمعة فى الردهة ٠

سأل محمد : وهل سيرفعونه على نعش كالكبار ؟

فأجابه على : ربما اكتفوا بحمله على الأيدى ٠

فقلت : بل سيرفع على « سحلية » لأنه أكبر من أن يرفع على الأيدى ٠

ومن وراء سلك الشباك رأيت ذلك الولد الذى كانت أمى تحذرنى من اللعب معه ، لأن مرضه الخبيث ينتظر أن يترك جلده ليكمن فى جلد الأولاد الآخرين ٠ وكان يترك داره ، ويقترب من

حلقة لعبنا دون الدخول اليها ، ويضحك وجهه الأصفر من بعيد اذا ضحكنا ، ويشجعنى على العيال الآخرين حين يشعر اننى ا-اسر فى اللعبة ، فكنت — من حين لآخر — أشركه معنا ، دون أن يتركنى ذلك الخوف من لمسه وهو حين أشير اليه بالقدوم الى حلقتنا يقوم بجلبابه الأبيض وطاقيته البيضاء ، ويقبل بحذر وتردد ، وكنا نعرف أنه لا يقدر على الجرى معنا أو مرافقتنا الى الزرع البعيد حيث نتسلق أشجار التوت ، فأمه لا تفرط فيه أبدا وأمى كانت تقول: انه وحيدها · وبعض نسوة الشارع كن يحذرننا من ايذائه لأنه كما يقلن : فيه شىء لله ·

وكنا نراه عائدا من الكتاب متأبطا اللوح سائرا فوق قبقاب الخشب متتبعاً الظل تحت جدران الدور ، ويجدنا فى حلقة لعبنا. ويبتسم الينا من بعيد ، ويذهب الى داره فتقوم أمه من بين النسوة، وتلقاه مرحبة : أهلا بعريس أمه · وترفعه على صدرها وهو يهز رجله بدلع ويقول لها : أنا رجل ·· أنا رجل · وتنزله الى الأرض مجهدة وتقول له : أنت سيد الرجال · فيمشى وراءها فرحا ، ناظرا الينا من وراء ظهره وبعد أن يختفى مع أمه فى الدار ، تتصعب النسوة ويقلن : ربنا يأخذ بايده ·

ويحكين كيف أن أباه وهبه للقرآن ، ورفض أن يسحبه معه الى الأسواق ليبيع الفخار ، وسمح له بالذهاب الى المقابر يوم الخميس والجمعة ، بصحبة الجارة الكفيفة حيث يقرأ القرآن للأموات ويعود قبل المغرب رافعا بين يديه المنديل المحلاوى الكبير الممتلىء بالفطائر والخبز ·

لمحنا الرجل الذى يغسل الجسد بالليفة ، وأشار الينا بيده، ففزعت قلوبنا ، ولكننا تشبثنا بحجارة السور ولم نهتم بندائه : انزل يا ولد أنت وهو ·

واختفى الرجل لفترة قصيرة ، ورأينا النسوة يملن بظهورهن نحو الجدران ليوسعن له ، وخرج مشمرا اكمامه مبلولا بالماء عند بطنه . ليشير الى أحد الرجال الواقفين فيأمرنا بالنزول ، وانتبه الينا الرجال ، ونظر « أبودهدة » نظرة فيها لوم وحنـان وحدفنا أحدهم بطوبة ، فسقطنا على القش المنثور أسفل السور •

وكانت واحدة من زوجات أخي واقفة هناك ، تحت الشجرة الخضراء الرامية ظلها على بلاط الفراندة ، تركت الأطباق فى حوض الطلمبـة ، وضربت صـدرها : يا نهار أسود •• الا تخافون أن يسخطكم الله •

وطرنا منها ، وهي تحجزنا بين ذراعيها المفرودتين ، ودخلنا الصالة مرة أخرى وهي تردد من خلفنـا : حتروحوا النـار •••• حتروحوا النار •

وعدنا الى نور الشارع ، وقعدنا على العتبة نجفف عرق الجبهة من أثر الجرى ونضبط نهجان صدورنا ، ولم يتكلم أحد منـا لمدة طويلة •

وقلت : سننتظر حتى يمروا به الى الجامع •

وقال محمد : وسنمشى فى جنازته •

وسقطنا مرة أخرى فى الصمت ، نتابع « ابن عزيزة » وهو يحفر التراب بعصا رفيعة بعد أن انتقل الى ظلة دارنا •

١٩٨٥

● اقتحام الدار

هذه هى دار « منبية » تلك المرأة التى تقف فى الغرزة ترص للرجال حجارة الحشيش ، وتصب لهم البوظة المعتقة ، فيخرجون من عندها يتخبطون فى الجدران . ويسقطون على أرض الشارع ٠ هذه دار « منبية » التى تكرهها الشرطة ، فتكبس على غرزتها فى أوقات متفرقة ، ويجرجرونها من شعر رأسها الى المركز ،وهى تجمع طرحتها الملقاة عـلى الأرض ، وتضرب يد الشرطى صـارخة: آكل منين ٠٠ آكل منين ٠

وأنا أقعد على مصطبة الدار الى جوار ابنتها بانتظار « عبده٠» مشغولين بمتابعة صانع الحصر الذى انحنى فوق الحصير الجديد ، يضم سماره ، وكان الرجل من حين لآخر يرفع كفيه . ليتفل فيهما، ثم يعاود العمل، مرددا مواويل حمراء ، نسمع نغماتها ، ولا تتضح لنا كلماتها ، يتدلى من تحت بطنه حبل سرواله الطويل ٠ وكـان يجعله بين أسنانه ، ونظر الى « رضا » ويحرك حـواجبه ، فتلم « رضا » جلبابها وتحكم وضعه بين فخذيها وتقول : عيب عليك يا شايب ؛

ثم فجأة وقع الرجل أمامنا متأوها من هذا الحجر الذى جاءه على غفلـة من مكـان خفى وسقط مـكتوما فى خلفيته ، مصطدما بمحاشمه ٠ ونام الرجل على ظهره ، بعد أن طارت عمامته ممسكا ما بين فخديه صائحا فى ألم أسقطه فى غيبوبه : نار الله الموقدة٠٠ نار الله الموقدة ٠

فضحكت معها على الرجل الذى تقلب على الحصير حتى سقط على الأرض وتلوث قميصه وسرواله بتراب الشارع ، وأقبلنا جهته نقلب فيه : وهو ظل متجمعا على نفسه يرفص بسيقانه المشعرة . ويهذى : نار الله الموقدة ‧‧ نار الله الموقدة ‧

قالت « رضا » انها لم تر الحجر الا فى خلفية الرجل ولم تعرف من أية جهة سقط ورأيت عبده وسط الجمع تتدلى حقيبته الى جنبه . أعطانى اياها ، وبدأ يرفع الرجل الذى استند على كتفه ، ثم أخذه الى دكانه القريب ، والرجل يسير الى جواره محنيا على ألمه يمد ساقا، ويجرجر الأخرى ، ويثير التراب عند القدم ‧ وأدخلنى « عبده » الى حجرته . وفتح الحقيبة ، وسحب من بين عـدة الحلاقة مجلة على غلافها صـورة لفتاة بلباس البحر تضع على رأسها قبعـة كبيرة من الخوص ، يسقط من تحتها شعر بلله ماء البحر ، كانت الفتاة تبتسم بعين ، وتغمز بالأخرى وقال « عبده » : هنا ستجد عناوين أخرى كثيرة ‧‧ أقعد ‧

وأجلسنى على طرف الكنبة،حيث يمكننى الانحناء على الترابيزة الصغيرة ، المعلق فوقها صور كثيرة لممثلات السينما فى ملابسهن شبه العـارية وسحب من الدرج الدفتر والقلم ، وقال : قلب فى الصفحات أنت تعرف مكانها ‧

وأخرج مظروفا مفتوحا هزه على الترابيزة ، فسقطت صورة الممثلة الشابة وقال : اقرأ ‧ فقرأت على ظهر الصورة اهداء الممثلة اليه ، مبتدئه أسمه بلقب الأستاذ ، فقلت فرحا : وصل الجواب الذى كتبته ! فأجاب : وسيصل الجواب الآخر ان شاء الله ‧‧ ولكنى أريدك بعد أن تسجل العناوين الجديدة فى عمل آخر ‧ وسألته : أى عمل؟ فقال : سأقول لك بعد أن أغير هدومى ‧ وقلت له : أنا الذى أزيدك فى موضوع ‧

وحدثته عن هجرى لبيتنا ، بعد أن ضربتنى أمى لتغيبى عن المدرسة ، وقلة انتظامى فى دروسى ، وقلت له اننى راغب فى العمل معه ، حيث تكون لى حقيبة مثله وعدة حلاقة . وأسرح بها بين الحقول، ويكون لى زبائن كثيرون يمـدوننى بالذرة والقمح أثنـاء المواسم ، وأجلس أمام الرجل على المصاطب لأحلق له شعره وذقنه . وعن رغبتى فى أن أمتلك طبلة مثـله ، وأذهب بهـا الى الأعراس ، وأصـاحب الراقصات وأحصل على فلوس كثيرة تعيننى على السهر بالنيل فى المقاهى والسفر الى المدينة لمشاهدة أفلام السينما ، وأكون حرا تماما مثله ، لا تربطنى مواعيد مدرسة ، ولا يربطنى كتاب ، أمقمق فيه عينى كل ليلة .

ابتسم « عبده » ودعك شعر رأسى وقال : وأنا أتمنى أن يكون لى قميص وبنطلون وحقيبة أملاها بالكتب التى تفتح المخ . لا بعدة صدئة أجز بها رؤوس الفلاحين ويكون لى مكتب وأقلام وكراريس .

وسألنى : تظن أننى اذا التحقت بالمدرسة أصير ولدا شاطرا يطلع من الأوائل ؟ قلت : يمكن .

خلع « عبده » جلبابه . وسحب سرواله الى أسفل ، وأخرج عضوه الراقد فى ظلمه الشعر الممتد الى بطنه ، أمسكه بين يديه ، واقترب من وجهى ، وقال مبتسما : هل طلع لك شعر كهذا ؟ رمشت بعينى ، وبلعت ريقى ، بعـد أن لمحت عين أخته من وراء البـاب ، ومد يده الى البنطلون ، وقال : أرنى ما اذا كان لك شعر مثلى .وقلت اله وأنا أزحف الى الوراء : أنت تقول انك تريدنى لعمل مهم .

رفع سرواله ، وظل يدعك بطنه مفرجا ساقيه . رافعا ذراعيه الى أعلى والى أسفل ثم الى الأمام والى الخلف ، ثم خلع الفانلة ونظر الى شعر صدره وقال : وأكيد لم يطلع لك شعر فى صدرك .

قلت : لى شعر فى صدرى • أحسه حين أمرر عليه كفى •

قال : ها ••••

وسألنى : هل تعرف تلك البنت التى تذهب الى المدرسة الثانوية والتى سكنت شارعنا هذه السنة ؟

قلت : بنت العسكرى •

قال : عليك نور •

وحكى أنها لا تكف عن النظر من الشباك حين تجده جالسا على المصطبة كل عصر ، وتبتسم له كلما مر من أمام بيتها ، وترمى عليه الكلام المبهم . وهو حين مر عليها يوما مرددا الأغنية « مين قال لك تسكن فى حارتنا وتقل راحتنا » ضحكت كثيرا ، وهو يريد أن أكتب لها رسالة . تظهر لها حبه الشديد ، ويطالبها بموعد حيث يلتقيان على المحطة . ويذهبان الى المدينة ليتفسحا فى شوارعها ثم يجلسا فى الكازينو على شاطىء النهر . أو يدخلا السينما فى الحفلة الصباحية •

قلت له : أنا لا أعرف كتابة جوابات الحب •

قال : أنا الذى سيملى عليك ••

ووضع أمامى ورقة بيضاء مرسوما على طرفها فراشة ، عطرها بالكولونيا من الزجاجة النائمة فى الفوطه الملفوفة بين العدة فى حقيبة الجلد . دعك يده المعطرة فى شعرى ، وقال : فكر فى الموضوع على ما أستحم •

قلت له : أنا لا أعرف هذه الموضوعات،لم ندرسها فى المدرسة•

قال : اذا كتبت كما أقول لك سآخذك معى فرح الليلة ،جاءتنى

اليوم دعوة لاحياء فرح فى قرية بالقرب من البلد ، وأنا بيبت على الأولاد ، سأجعلك تمسك الرق ، ويكون لك نصيب من النقوط .

جاءت « رضا » وقالت : جهزت الماء والطشت .

بعد أن خرج « عبده » جلست الى جوارى وظلت لفترة طويلة صامته تنظر الى الأرض ثم أمسكتنى من كفى ، وقالت : ألا تحب أن تكون عريسا ؟

فسألتها : عريس ؟

قالت : آ .. ويكون لنا سرير كهذا عليه ملاءة مزخرفة بالورد والعصافير ، وله داير أبيض وناموسية بيضـاء تسدل علينـا فى قيلولة النهار ، وفى ظلمة الليل ، وننام بداخلها عريانين نتبحلص، ونتحاضن ، ويقبل أحدنا الآخر . كما يفعل الممثلون فى السينما .

واقتربت منى جدا وضمتنى اليها ، وقالت بشفاه مضطربة : انك ستكون عريسا جميلا .. بعد أن تخلع بيجامتك .. وتبقى فقط بملابسك الداخلية النظيفة البيضاء . ورفعت يدها بسرعة بعد أن سمعنا الطرقات القوية ، واهتزازات الباب الخارجى ، خرجت « رضا» الى الصالة ، ثم انطلق صواتها فجـأة حتى ملأ الحجرة . وخرجت وراءها ، فوجدت صانع الحصر عارى الرأس ، مرتديا سرواله وقميصه الملوثين ، واضعا يدا تحت بطنه . وممسكا بالأخرى شعر البنت يلويه بكفه المتوترة ، ويخبط رأسها فى الحائط ، ويضربها بقدمه فى خلفيتها ، والدم سال من تحت أذنها ، ومن جانب الفم ، وهو يصرخ ثائرا : سأقتلك .. سأقتلك حتى يظهر لك أهل . وزعقت بأعلى صوتى نحو الداخل : « عبده » .

وظهر فى الظلمة الداخلية عاريا ، يزيل الصابون عن عينه ، ووجد الرجل محاصرا أخته فى الركن ، يضربها بيديه ورجليه ويطلق

الشتائم ، ذاكرا أمها بكلام فاحش ، و « عبده » ظل فى الظلمة مخفيا عورته تحت كفه ، يهدد الرجل ويطالبه بالابتعاد عن أخته . ولم يهتم صانع الحصر ، بل وجه شتائمه الى « عبده »وقال انه مجرد صايع يدور مع الغوازى ، وأن مصيره أن يصبح قوادا كباقى أهله ، ورفع « عبده » السكين المركون على الترابيزة القريبة منه ، ولم يهتم بعريه، واتجه الى الرجل ، وأراد أن ينزل بضربته على الرأس العارى غير أن الرجل تلقاها بذراعه ، وأطلق آهة شديدة ، سقط بعدها على الأرض ، وواصل « عبده » ضربه برجله . فى وجهه ، وفى صدره. وتحت بطنه ، والجارات ـ حين سمعن صوات البنت ـ قدمن الى الدار ، ولما فوجئن بعرى « عبده » عدن بظهورهن ، ووقفن يراقبن الضرب من شراعة الباب ، بانتظار أن يطلبن الاستغاثة من رجل عابر ، ولم يجرؤن على الدخول أبدا ..

١٩٨٥

القسم الثالث

● المـلاك

ـ ١ ـ

تحدث الناس عن الفتى الذى جاء يطلب « كريمة » من أبيها قالوا : هو ابن تاجر سمك • يسكن الحى الواقع على ضفة النهر ، وقال الكبار : جده لم يدخل الجامع الا بعد أن نحل الأفيون بدنه ، وضحكوا حينما قالوا : كان يصرخ بالآه ، ويزعق فى وجه الله ــ فى الركعة والسجدة ــ من ألم المفاصل ، ويقضى صلاته فى كحة مسلولة لا تنقطع •

أما عن أبيه فقدتحدث الناس عن صحاحيره وعربته الكارو التى يدور بها فى الأسواق ، يبيع أمشاط البلطى والبياض،وعن بصبصته للنسوة الشاريات . وضحكوا حتى كحوا حين ذكروا رائحة داره الزفرة التى يشمها سابع جار ، وفتية الكفر دار بينهم الحديث عن العريس ، أكـدوا أنهم يعرفونه منذ أن كان ينعم تراب الشـارع ببيجامته المكوية ، وأكد واحد منهم أنه يعرف ما أخفاه ابن الحاج الذى ضاجعه فى عباءة أبيه الجوخ ، وأصر أن هذا الداء ما زال فيه حتى بعد أن تطوع باعداديته فى الجيش ، وأنهم لو أرادوا مضاجعته لأحضره اليهم هذا المساء •

وأكدوا جميعا أن « كريمة » الجميلة سترفض أن تربط نفسها بالزفارة ، والذين حضروا من الجيران قراءة الفاتحة أقروا أن البنت هددت بدلق الجاز على جسدها ، أما أمها فقد صرخت فى وجه أبيها

الذى أفسده الكبر عقله،لكنه صفعها على وجهها وقال: يا امرأة تريدين أن تسودى وجهى ، أنا رجل وقلت كلمة للرجال . أم تودين ابدال شالك بعمامتى هذه ؟

وتجمع أهل الكفر ــ ليلة الجمعة ــ يشاهدون فرح «كريمة» .. كانت فى طرحتها البيضاء بين الكوشة تحاول أن تبتسم ، وعرفوا أنه سينقلها الليلة الى داره على الطرف الآخر . وبكت النسوة والرجال حينما ودعوا السيارة التى أزعجت الكفر بزمارتها القوية المتتابعة .

ولما أدخلها غرفته فى الطابق الثانى قال : هذه غرفتك . وأنت منذ الليلة على سريرها وبين كنباتها لا تفتحى نافذة ولا تطلى من شرفة ، ودق المسامير فى ألواح مدها على هيئة الصليب .

ــ ٢ ــ

تذكروا يوم أن اشتروا الدار لأبيها بعد أن زف الى البنت التى اختارها سمراء نحيلة من القرية البعيدة ، بعد عام استدعوا ــ عند الفجر ــ القابلة العجوز ــ لتستقبل البنت التى ملأت أركان الكفر صراخا ، جاءت كملاك أبيض سمين رباه الرب فى أحشاء أم سمراء نحيلة .

فى اليوم السابع غرسوا فى صينية الحناء الشموع الكثيرة ، وسموا كل شمعة باسم ، ماتت نارها جميعا ما عدا الأخيرة ، وكانت باسم « كريمة » قالوا : فلتكن « كريمة » .. مكرمة من العبد ومن الرب باذن الله .

علقت لها أمها خمسة وخميسة فى خصلة الشعر ، كما علقت الأحجبة والقروش القديمة على صدرها ، وتركتها تحبو فى الشارع مع بناتهم تأكل من ترابه ، وتعجن فى طينه ، وأطلقتها تجرى فى الشارع

ويجرى معها شعرها المعقوص على هيئة ذيل حصـــان ، فيتقافز على خديها قرطان بفصين لامعين ، وعلى صدرها تهتز ثمرتان ناضجتان مشتاقتان للشمس والهواء .

وتذكر فتية الكفر يوم أن رأوها فحرم عليهم النوم ، أحبوا طلعة الفجر . وشقشقة العصافير . ولما يحل الليل كانت روحها الشفافة تتوزع فى كل دار . فيجدها الفتى الغافى فى الفراش ممددة فى حضنه تحت الغطاء تعطره بأنفاسها . فيهمس اليها بكلام أكثر حرارة مما قاله بطل الفيلم للفتاة الباسقة ذات الشعر القصير والبسروال الضيق .

أما الفتى اليقظان فكان يجدها أمامه بين سطور الكتاب تبتسم اليه وتدعوه للقبلة المسكرة . فيشدو بأبيات الشعر المحفوظة ، أو يقوم فيخط الرسالة المدعمة بأجمل أغنية رددها المذياع ، ويرسم على حواف الرسالة الزهور الملونة ، وكانوا يخرجون مع نور الصبح الى المزارع يطالعون كتب المدرسة . يحفرون على شجر الحقول القلوب المرشوقة بالسهام . ويكتبون بالمسامير اسمها بخط يجهدون أن يكون جميلا كصاحبته .

حتى ان الفلاحين من أبناء الكفر حفروا مثلهم ــ بأظافر اليد ــ نفس القلوب والسهام ، ورددوا فى سيرهم خلف الجمال والحمير الأغانى المشتاقة للحنة والشال القطيفة والمندرة المغلقة على الدفء .. والولد الجميل من الأم الجميلة .

والغرباء الذين حضروا سوق السبت تذكروا يوم هربوا من حر الظهيرة الى ظلة دارها . وقعدوا حول القفف والمقاطف يطردون الجوع بالأرغفة والطعمية ، ولما عطشوا طلبوا الماء من الباب القريب ، حين خرجت عليهم « كريمة » بالقلــة تنضح بالماء قضموا أكفهم بدلا من اللقمة . رووا الحلوق بالماء الممزوج بماء الورد ، كمــا رووا القلوب العطشى بحب العيون السود الضاحكة .

وأكدوا أن السوق ـ بعد ذلك ـ ازدحمت بالشارى والبائع من كل بلد ، كانوا جميعا يتجهون ليبلوا الحلق الجاف بماء السبيل الذى أقيم عند باب الدار .

حتى ان أعيان الكفر أرسلوا المنادى يعلن فى الشوارع وفى البلاد المجاورة ، أن السوق ستقام طيلة أيام الأسبوع . وبعد أن كانت تقام بالساحة فى آخر الكفر ستكون فى الشارع الذى تسكنه «كريمة» .

والحاوى الذى كان يوهم الناس بعبور الطوق بين السكاكين والنار ، قفزه فى خطفة لما رآها تبص عليه من سطح الدار ، كذلك بائع البوظة والعطار والسمكرى هدموا خيامهم القديمة فى الساحة ، وأقاموا غيرها أمام بابها المفتوح .

وكانت « كريمة » ترد على كل الرسائل التى تلقى اليها أو تندس تحت عقب الباب . ردت على الصبى الذى كتب « أحبك أكثر من أمى وأبى وأختى الكبيرة » وذيل الرسالة بالنشيد المقرر فى كتاب المطالعة ، كذلك ردت على الفتى الذى نقل لها رسالة من كتاب رسائل الغرام ، وعلى رسالة الفلاح الذى كتب « يا بنت سيد البلد يا تخن بعضيك .. أمتى بغيب القمر وانط وآجيك .. » .

ـ ٣

قال حينما أعادها لأبيها : بنتك فاجرة ولعوب .. فاجأتها لما نزلت أجازتى وسط الأسبوع مع فتى من جيرانكم ، رغم أنى قد أغلقت عليها الأبواب والنوافذ ، وهذا دليلى .

وألقى فى وجه أبيها جوز نعال ..

وفوجىء الناس لما رأوا ـ فى هذا اليوم ـ الصبح يطلع من دار « كريمة » .

ابتسمت لهم ولوحت باليد ، لكن ـ يا ولداه ـ لقد شخشت الأساور بمعصمها وكانت من قبل غائصة فى ليونة الذراع ، والبسمة كانت باهتة فى الوجه الباهت قالوا : لقد عادت لأن أولادنا كسروا أبواب زوجها المغلقة .

لكن الجارة العجوز أكدت أن البنت قد باحت لها بسرها وقالت: يا خالة منذ أول ليلة لم ينتصب له بشر ، زرت معه المشايخ فأفتوا بأنه قد خطى العمل الذى حطه العدو تحت عتبة الباب ، حفرنا العتبة وعثرنا عليه معقودا كالحواية ، ولما جاءنى بالليل فقط بلل وجهى بلعابه . وملأ أذنى بلهاثه المحموم ، ثم ركلنى ونام ، قلت له نعود للشيخ ، فأفتى بأن العدو هذه المرة قد ربط العمل برأس قرموط ، ولو كان القرموط فى نهرنا كنت قد أحضرته ، ولكنه اللعين قد عبر النهر الى المحيط الواسع .

ـ ٤

قال الناس : هاهى تعود وليس بأحشائها شئ .. وقد فارقها جمالها .. وهمسوا فيما بينهم : ربما كان الذى أخذها الى آخر البلاد كابن بائع السمك ليس فيه للنسوان ، وسخروا : أو يكون العيب فيها وتخفيه ، أم ما بال رجال هذه الأيام أعضاؤها مرخية ؟ و «كريمة» لما سمعت بذلك حكت للجيران ، بأن الرجل الذى كان قد سمع بجمالها واشتراها من أبيها بثمن رفع له أعمدة العمارة الجديدة ، أسكنها الشقة فى الدور العاشر تطل شرفتها على بحر واسع يقابل له النيل له قنطرة لا ينقطع عنها عبور السيارات اليل نهار .

وحلفت بالله العظيم أنه لم يقربها ، ولم يجمعهما فراش . فقد كان يأتى بفتيات لهن أفخاذ عارية وأثداء مدلوقة ، يرقصن على دقات

موسيقي صاخبة مرة وناعمة مرة أخرى ، ولا يتركن كأس الشراب من أيديهن حتى يطلع عليهن نور الله،وأكدت أنها رأته بعينها التى سيأكلها الدود بين لحم احداهن فى الحجرة المغلقة عز النهار ، وبكت حين أتت الى ذكر الرجل الذى دخل عليها عاريا ــ بالليل ــ يرفع عنها الغطاء ويشلح ثوبها . ولما صرخت تستغيث دخل زوجها ليصفعها ويطلب منها أن تستجيب للرجل ٠

وقالت انه منذ هذه اللحظة ، وهى تغلق باب غرفتها على نفسها كلما حضر الرجال الذين يحملون الحقائب السوداء الممتلئة بالجتيهات الورقية ٠

وأنها كانت تسمع من خلف بابها طرقعات الكأس وكركرة الجوزة، وقالت أنها قد جمعت خلقاتها وعادت حين دعاها لتجمع حاجاتها وتعد نفسها للسفر البعيد الى بلاد يقال ان لرجالها وجوها حمرا وشعرا ذهبيا وعيونهم زرقاء بلون ماء النهر ٠

ــ ٥ ــ

وحكى الناس فيما بينهم « ان « كريمة » لم تعد تنفع لأحد من أبنائنا ٠ وأن ماء سبيلها ستظل حتى يأكلها العطن » ٠

وجاء واحد منهم وادعى أنه رآها فى البلد المجاور تتأبط ذراع ولد يرتدى سروالا محزقا ، وله شعر يسقط حتى صدغيه ، وأنها قد دخلت معه مكانا يلتقى فيه الفاسدون ٠

وحكى آخر أنه رآها ــ وهو لا يكذب ــ فى الخرابة مع واحد من صبية موقف السيارات فاردا شعرها ، يبوسها بين ثدييها ، وحلف بالنبى أن سروالها عنده فى الدار ، فقد خالسها والتقطه حين استلقيا

على أرض الخرابة ، وأنه قد قذف الولد بحجر في وجهه وهو لذلك مجروح ويربط رأسه بشريط أبيض ..

والجارة القريبة أقسمت لمن حولها ــ رغم أن ربنا أمر بالستر ــ أنها رأتها مستلقية على حطب السطح يركبها ولدبانت فلقتاه واضحتين تسدان عين الشمس .

وأنها حاولت أن ترى وجهه ، الكنها لم تر غير الفلقتين ، ولم تسمع غير صوت تكسر الحطب وتأوهاتها الحميمة ، وانتظروا جميعا أن تخرج عليهم « كريمة » يوما ببطن منتفخ يحوى ولدا لا يعرفون له أب .

١٩٨٠

● السجين

أ ـ كان حين يعود من حقله ويربط دوابه ، يشتاق لكرسى الدخان مع الرجال فى المقهى القريب ، فيجلس بينهم حتى يسمع أذان العشاء من الجامع . فينطلق الى داره ، يقبع فى حجرته بانتظار الدركى. من النافذة المطلة على الشارع يمد له اليد ـ من بين قضبان الحديد ـ بالدفتر الذى تكورت ورقاته •

وكانوا قد قالوا اله : أنت براءة منذ اليوم ، لكن انتبه ، عليك حين تسمع أذان العشاء أن تكون فى دارك فلا تبرحها ، لأن الدركى سيمر كل ليلة ليوقع على دفتر يكون معك . وذلك لمدة خمس سنين أخرى •

وكانت نفسه ترتاح حين يوقع الدركى ـ بخط غليظ ـ اسمه على الورقة ، فالآن يمكنه أن يدفن وجهه فى صدر زوجه الممددة على سرير النحاس ، فلا يهم الصوت الذى يحدثه السرير عند الانتفاضة المزلزلة ولا صوت احتكاك الكوز باناء الماء لما يتطهر من الفعل الحميم ، فهو آمن من أذن الدركى ، ومن عين الدركى،التى تكون قد انغرزت بين خصاص النافذة تتلصص على الجسدين العريانين الملتحمين ، أو على جسد المرأة الملموم بالردفين والثديين بين طست النحاس •

وكان يمكنه أن يقضى حاجته فى الزريبة ، هناك بين المذاود ، براحة وتأن ، فلا تزعجه الطرقات القوية على النافذة ، ولا النداء

المستعجل للتوقيع . بل يمكنه أن يسحب بهيمته ، وينسحب متخفيا الى حقله يروى الأرض المحتاجة للماء ، فلا يفوته الدور .

كان يود أن يسكن الحجرة على سطح الدار . فهى تسمح لأنفاس الصيف العطرة بالتردد ما بين الباب والنافذة النائم عليها غصن السنطة . كما أن الحجرة التى يقطنها ، قد أكل الرشح جدرانها . وعم حتى انغرست أرجل السرير والدولاب فى الطين ، ولتكف زوجه عن نزح الماء من القناة المحفورة بطول الجدران ، وليرتاح هو من الرائحة الكريهة الفائحة من أرض الحجرة .

كان يود لو أنه شيد الدار بالطوب الأحمر والأسمنت . يجعلها ثلاث غرف بنوافذ تسمح لضوء الشمس بالمكوث على الجدران حتى المغيب . ويقيم الزريبة فى آخر الدار ، يفتح لها الباب على الشارع ، بجانبه صنبور له حوض تشرب منه الدواب ، ويفتح الباب بضلفتين على الردهة ، لتدخل منه زوجه بالاناء تحلب الجاموسة .

وعلى السطح يطلق الدجاج والنعاج تمرح بين عشة الخوص والجريد، بالقرب منها يرتفع البرج بفتحات كثيرة، يرفرف حوله حمام، يطير الى الزروع فيلقط الحب ، ويحلق منفضا أجنحته على حبل الغسيل وعلى أعواد الحطب . وفى السقف يمد أسلاك النور لتضىء أركان الدار، ويعلق المصباح ــ على المصطبة ــ أمام الباب ، فى ليالى الصيف يفترش الحصير ، ليقعد بين الجدران يدخن المعسل ، ويتكلم عن الزرع والماشية، والعيال على مقربة يقبضون على ذيل الجلابيب وينطلقون كقطار مسافر .

لكنه قال لنفسه : تهون .. ها قد مر صيفان ، بعدها لن ترقد فى الدار ــ من أول الليل ــ كدجاجة .

ب –

وها هو مرة أخرى بين يدى المأمور يسأله : أين كنت البارحة؟ وها هو مرة أخرى لا يجيب ، هل بامكانه أن يحكى للمأمور ؟

كان يحلم باليوم الذى يقعد فيه بين الرجال حتى مطلع الفجر، أو يسعى بين الشوارع متحررا من عين الدركى الكارهة الآمرة ، وحلف بالله العظيم أنه سيتحر الخروف الذى ربطه فى الزريبة ، ويجمع الجيران على وليمة يقرأ فيها شيخان ، وهو لا يكذب ، فقد راح يعلفه حتى صارت له (لية) تغطى ساقيه الخلفيتين . وخروف له هذا الشحم ليس بالكثير على أيام قضاها بين الجدران الضيقة لا يرى فيها غير وجه الظلمة . ووجه زوجه الذى ينبلج من الظلمة بنوره ، كان يراه باسما بكحلة وضفيرتيه المساقطتين على نهدين مستسلمين كيد مرحبة .

كان يود لو يعوض هذه الأيام الضائعة ، ليسعد أباه الشيخ الراقد هناك فى الحجرة بجوار الزريبة ، لو يستطيع أن يقطع اليد التى هشمت أسنانه ، وسحبت منه ضوء العين ، واليد التى قبضت روح أمه ، وأسكنتها – هناك فى تراب المقبرة ، أمه الطيبة التى ما خلعت السواد ، وما وضعت قدميها فى نعل منذ أن كبلت سلسلة الحديد يده .

قالوا : لقد بالت فى هدومها لما رأتك بين قضبان الحديد ، من يومها وهى راقدة فى الدار ، تفزع من كابوس الليل ، وتهذى حين تصبح وحدها تعد الأيام على أصابع اليدين .

تمنى لو زرع الشجرة التى تظلل مقبرتها ، ويقيم الشاهد المدهون بالجير الأبيض ، يجمع عظام أمه على الرمل النظيف ، ويكترى لها الشيخ الذى يتلو الآيات المباركة ، فتبتهج روحها فى الملكوت . حتى يقبل اليوم الذى يحمل فى الخشبة على أكتاف الرجال ، حينئذ

يقول لها : ها أنا عدت فباركيني بدعواتك الطاهرة ، ويبكى ٠٠ يبكى على صدرها ٠

وها هو يقف مرة أخرى ، ليسأل عما كان يفعل البارحة ؟

وهل يستطيع أن يعترف ؟ ألم يسحب منه الدركى علبة سجائر كاملة يوم أن سمح له بالسهر عند الشيخ الذى ينشد ؟ وهل يصدقه المأمور لو أقسم أنه سمع أذان العشاء من حجرته ؟

وهل يحكى له أنه بالأمس عاد في الوقت الذى انمحت فيه ظلال الدور ، لما كانت النسوة قد اجتمعن أمام الأبواب ، والصبية بينهن يلعبون فى بقع الضوء الذى فرشته على الأرض مصابيح الشوارع ٠

وقبل أذان العشاء قام بأعمال كثيرة ، استطاع أن يربط الدواب على مذاودها ، ويلقى اليها عيدان البرسيم الطرية ، واستطاع أن يجلس الى أبيه الشيخ يسأله عن بيع الخس الذى يشغل تربيعتين من الأرض ليزرع مكانه البرسيم للجاموسة ٠

بعدها دخل الى حجرته ، شم رائحة الكرنب فعرف أن الليلة هى مساء الخميس ، وماذا يعنى مساء الخميس عند سيادة المأمور ؟

هل يعنى ــ كما نعرف ــ العشاء الدسم ، والجماع بالحلال ؟

هل يؤكد أنه سمع أذان العشاء حين كان يلوك نصيبه من اللحم؟ وأن الشيخ كان يختم الصلاة ، وهو يلف سيجارة من تبغ العلبة الصدئة ، ويرشف الشاى الذى نشر الدفء فى بدنه المبرود ، ولهذا طلب من زوجه أن تصنع له كوبا آخر ٠

وهل يحكى له كيف رأى زوجه حين افترشت الحصير، بيدها مرآة وبصلة ، تغرز العصا الرفيعة فى جوف البصلة ، تغمسها فى الكحل الأسود الملفوف بورقة صغيرة ، لتمرره بلطف ما بين الجفنين ٠

الا تتزين زوجك ليلة الجمعة يا سيادة المأمور لتبدو فى عينك جميلة مرغوبة ؟ أليس هذا من شرع الله ؟

أم يحكي له عن ضحكاته لما رآها تدفن عينيها بالابهام والسبابة، والكحل قد سال خطا أسود على الخدين ، مما جعله يفتح العلبة الصدئة ليلف سيجارته الثانية ، فى الوقت الذى راحت تفرد شعرها المبلول تحت المنديل،وترجله بمشط الخشب الذى نثر قطرات الماء على البراد٠

وعن مداعبته لها لما قال : ابعدى عن الشاى ٠٠ حتى لا يسقط فيه قملك ٠ وكيف ضربته بظهر يدها على فخذه ،فابتسم لها الابتسامة العريضة . وهل يصح أن يقول له مادار فى نفسه : ليس الآن ٠٠ فلننتظر حتى يمر الدركى ٠٠ والليل براح ٠

لكن عديم الضمير تأخر ، وهو لم يقدر على لجم يديه اللتين هصرتا المرأة حتى نضح عرق جبينها ٠

هل يعقل أن يفصل عن عرى المرأة ، وعن شهوة أبن آدم القادرة؟ وهل كان فى مقدوره أن يكبحها ، أو ينزل عنها ليمد يده بالدفتر للدركى حين راح يضرب ضلفة النافذة بقبضته القوية ٠

الا يحمد الله لأنه لم ينهض ليغرس السكين فى رأس الدركى المطلة ، أو يجره من قفاه ليربطه فى وتد الحمار ٠

١٩٨٠

● حلم « أبو عطية » القديم

فى الحجرة الرطبة رقدن ،فى كتلة الظلام الأبدية كانت حركاتهن المحدودة ما بين الردهة والباب والشارع حيث يجتمعن بباقى الصبية فتغنيهن الكبرى ما حفظت من أغان ٠٠

ولأن العيون مطفأة ــ لا ترى حلاوة الدنيا ــ مرقت كبراهن من طفولتها الى مراهقتها الى سنها الحالية دون أن يأتى ذلك الرجل الذى رأته ــ عبر ليل كثيف ــ قادما ليروى جفافها بذكورته ٠٠

والأختان الصغيرتان يتبعانها (لأن العيون مطفأة) وكل مساء ينتظرن العجوزين ٠٠ وكل مساء يرقد العجوزان الى جوارهن٠ يلتصق الجسدان ٠٠ وفى شوق ينتظران ٠ و(الدولاب) يدور ٠٠ بين القدمين يدور ، والطين يتخلق بمس البدين المعروقتين ٠ و (نعمات) تجىء وتروح ما بين (الدولاب) والحصى المفروش تحمل ما صنعت أصابع زوجها لتعرضه للشمس الساخنة ٠

والعقل الذى تحويه الجمجمة العجوز المضمومة بالطاقية الصوف يدور ، واليوم ينتهى حين تغرب الشمس ، ويأتى غيره حين تشرق ٠

قالها لنفسه كثيرا « غدا ينفرج الحال » وحين قالوا له أول مرة: « مبروك » ٠٠ كان سعيدا ، ولما دخل على (نعمات) الشاحبة المرهقة، قالت : بنت يا (أبو عطيــة) ٠٠ كان سعيــدا ، وأرضى نفسه غير الراضية ، « كله من عند الله » لكن العين لا ترمش حين تتحرك أمامها

الأصابع ، تظل على حملقتها الجامدة عند تحولها من الظلمة الى النور الباهر ·· عرف أنها عمياء · حزنت (نعمات) الجاحدة ، أما هو فى باطنه كان راضيا ، يجمع التراب الناعم ، ويحمل صفائح الماء ليبللة، بقدميه يلوكه ، ثم ينقيه من الطوب الدقيق ، ليرفعه ــ بعد ذلك ــ الى (الدولاب) كتلا صغيرة ·· فيدور به ، وبين أصابعه تتشكل (المتارد، والأباريق ، والمواجير) ·

تحملها (نعمات) حيث الشمس الساخنة · ثم (الفاخورة) الملتهبة ، يقف الى فوهتها يدس الحطب الجاف ، ويرتفع الدخان كثيفا يملأ الدور القريبة ، يحمر الفخار ويبرد ·· يأتى (برهم) ليرفعه الى عرباته الكثيرة · يلف به الأسواق ، والقروش القليلة تبقى فى يد (أبو عطية) والطعام يأتى حين تأتى القروش · فتزدهر الحجرة الرطبة بها . لكنها تكلح لما تقل فى صدر (نعمات) ·

وحرقة أخرى ، ودورة جديدة ما بين التراب والطين وصهد النار ·· والفاخورة تشتعل لتطفأ ، ومن بطنها يخرج الفخار محمرا ليرصه على عربات « برهم » يومها قال له : أنجبت بنتا ·· ولما لم يزد أكمل :غدا تكبر فيضاف الينا فم جديد ، وأنا فى حاجة الى زيادة ·

ضرب الحمار ، وأمر الحوذى بالمسير ، التفت اليه : ليس هذا وقته يا (أبو عطيـــة) ثم انى زودتك حين تزوجت ، ولم يمر على ذلك عام ·

فى الحجرة الرطبة تمدد الى جوار (نعمات) والجسد الريان ينفخ لهيبا كفوهة (الفاخورة) وقالوا له ــ ذات يوم ــ مبروك ·

كان يحلم بالولد ، لكن الولد لا يجيء لأن (أبو عطية) يعاند الله ، وعرف أنها كأختها عمياء ، قالوا له : لأنها قريبتك تأتى خلفتك عمياء ·

وأغروه بالزواج من غريبة . و (نعمات) الطيبة يحبها . واليد الفقيرة عاجزة ، زار (برهم) فى داره ، قال : بنتان يا معلم .. جئت أتوسل اليك .. القروش لم تعـد تكفينـا ، الكبيرة تأكل والصغير تكبر مع الأيام .

فتل شاربه ، ورشف الشاى قال : يا (أبو عطية) ماذا أفعل أنا والسوق راكدة . عرض عليه فكرته : اعطنى الفخار الشرك .

وحين انفضت الجلسة ، وافق على نصفه .

والليل يأتى بالظلام ، وقبل الظلام تنتهى الأعمال .. فيغتسل فى الطلمبة ، وينزل الطين الذى علق بساقيه وقدميه ، ويدخـل جسده فى الجلباب النظيف ، والحجرة الرطبة فيها المصباح الصغير ، تصبح ظلماء حين ينطفىء ، وفوهة (الفاخورة) فى جسد (نعمات) تلفحه باللهيب الذى يبرد حتى ينام ، والرضا يشمل بدنه النحيل .

دخل عليها يوما ـ كانت تلقم الطفلة ثديهـا ـ جلس فى ركن ، انتبهت اليه قالت :

ـ ما بك يا (أبو عطية) . لم يرد ، وحين ألحت أجابها :

ـ (برهم) رفض . طلب منى أذا أردت زيادة أن تعملى معى .
قالت :

ـ وماله ؟

ـ والعيال ؟

ـ لا تخف عليهم .

ـ . . . . . .

ـ (أبو عطية) ماذا تقول عنى ؟ هذه ثالث طفلة عمياء .

ـ أتخوضي في الله ؟

ـ ولكنك في حاجة للولد ، فتزوج غيري ان شئت ٠

ـ لما أجد الطعام لنفسي ٠

والصمت ساد ، وانطفأ المصباح ، الكن الفوهة لم تعد ترسل نارها ، اقترب منها ، التصق ، عرف ان النار فيها لكنه استدار ، ونام ٠

شمرت جلبابها ، عقدته ، صفت كتلة الطين ، فرشت الحصى، فوقه رصت ما سوته يدا (أبو عطية) ٠٠ تطلع اليها (كان سعيدا) في جسده تشتعل النار من أجلها ، لكن الخوف يخمد ناره ٠ قالوا له : لا تقربها فانه لا جدوى ستأتي الرابعة عمياء ٠

و (نعمات) تدلق الماء على الجذوة اذا صحت فيها ، والجذوة لا تخبو تظلم الحجرة وتبقى العينان يقظتان ، والخفقان يرسل الدم الحار في كل الأنحاء ، تطلع اليها ، عظام الترقوة برزت ، والثديان تفرقا كجلدتين لا داعي لهما،والصدر ازرقت عروقه الكثيرة الدقيقة٠

والأخوات هناك حيث الرطوبة يكسي أجسادهن اللحم الطري٠

والحسرة في حلق (أبو عطية) ٠٠

والحسرة في حلق (نعمات) ٠٠

ولا يقدر أحدهما أن يقول للآخر : ان الغرسان لن يقبلوا على بناتنا ٠

والحسرة تزيد ٠٠

لأن لحم الكبرى يموت،والاثداء التي كانت يوما منتفخة ضمرت. والشارب تحت الأنف . وبرزت الأسنان ، والعيون ظلت مطبقة على ليلها ٠

لكن (أبو عطية) كان يراه صغيرا أول الأمر يحبو ..

وحين كان ينظر الى زوجه رآه ، يذهب فى طريقهـا ما بين (الدولاب) والحصى .

باليد القوية يرفع كتل الطين الكبيرة ..

وبالرجل الراسخة يلوكه ..

وكان يذوب ..

وبالخوف يذوب ..

وفوق الحصى يجف الطين الذي صنعه ، يدخله (الفاخورة) يضرم فيه النار ، أمام الفوهة يقف ، يدس الحطب ، ويرمى السرس. والنار تغرد بالداخل حمراء وقوية ، و (نعمات) بجسدها أمامه ، يشتهى النار فى الحجرة الرطبة ، والخوف يجىء لكنه هذه المرة لا يطفئها بينما الثلاث يرقدن الى جانبهما ، وراء الظلمة .

١٩٧٦

● فى العراء

● وماذا كنت أفعل بعد أن أكلت غدائى الدسم،ودخنت المجرين، وجامعت امرأتى على سريرى العريض ؟ أنا سائق عربة الأجرة التى ألف بهـا وسط لحم الزحـام فى شوارع تختنق بالعربات الملاكى والأتوبيسات الممتلئة بالأجساد الملتحمة ٠

لما تفرش الشمس ضوءها المستطيل على فرشتى أقوم من نومى لآكل لقمة سريعة ، وأخطف نظارتى الشمسية من فوق الكوميدينو المكسور الضلفة لأهبط السلم الذى انبرت درجاته ، أهش قطط الجيران المشغولة بزبالة الصفائح على البسطة ٠

وأستقبل النهار بسعلة تنفض بقايا المعسل من رئتى ، وأحيى البقال الذى يقف وراء بنكه ، وأصبح على صبى المقهى القائم عـلى الناصية ، وأعبر شريط الترام فأدخل هذا الجراج الوسيع ٠

وأنطلق بعربتى لأدور ٠٠ وأدور ٠

يلفحنى برد الشتاء ، فأحتمى منه بالكوفية والجاكتة القديمة ٠

ويرهقنى حر الصيف فأستعين بمناديل الورق ، وبقمصانى الخفيفة ٠

فماذا كنت أفعل ؟ وأنا معتاد على العودة كل عصر ، لأجد أطباق الطبيخ تنفث بخارها الشهى فوق الجريدة المفروشة على الأرض ٠ وأكون قد ارتديت جلبابى الخفيف ، وشطفت وجهى على حنفية الحمام

الذى يشاركنى فيه الجار الطيب ، وزوجته النحيلة المعروقة ، وعياله العفاريت الذين يختفون كلما رأونى طالعا على السلم ، ليفاجئونى ب (بخ) فأفتعل الرعب . وأرفع يدى الى أعلى مستسلما ، ويخرجون من وراء السور المنخفض مهللين مبسوطين برعبى . فأرفع اثنين منهم على ذراعى ويمشى خلفنا الثالث ممسكا بطرف البنطلون .

كنت أود لو أمتلك عيالا مثله ، يستقبلوننى على البسطة صائحين : « بابا جه .. بابا جه » .

فها هى امرأتى تسقط أجنتها ، فرحمها ضعيف ، لا يقدر على رفع ثقل الثمار الناضجة . مرة واحدة ، مرة واحدة فقط . فى السنة الثانية لزواجنا . رمت لنا ولدا ، ما شاء الله ، كان كأحد هؤلاء الملائكة المحلقين على داير السرير ، وجه غض ممتلىء ، وبشرة بيضاء ناعمة ويدان صغيرتان طريتان وشفة حمراء تغرى بالقبل ، وما كاد ينطق ب « بابا » حتى اختاره الله ... دوختنى هذه الضربة المفاجئة على يافوخى . ولأنه كان من الصعب أن أخرج من عملى لحمله الى البلد، حيث أدفنه ـ هناك ـ مع جده ، رفعه الحانوتى على ذراعه ، وسار به الى مقابر (الغفير) وفى آخر النهار جاءنى ليقول دفنته هناك فى تربة واحد باشا .. أى والله باشا . لشاهده طربوش أحمر كبير ورخامة مكتوب عليها أسمه بخط أسود ، وقمت بالواجب قرأت له الفاتحة كما قرأت بعض الآيات .

وناولته أجره فقلبه ورفعه الى جبهته عددا من المرات . وهو يقول : انهم أحباب الله .. وستجده هناك ليساعدك وأمه عند المرور على الصراط .

فماذا كنت أفعل يا هذا الحشد فى الزقاق . يا هذه العيون المخملقة فى النافذة لترى عريها ؟ أكان من الممكن أن أتركها فى الحمام ؟ الرغاوى على عينها وفى طبلة الأذن ، فلم تسمع ، ولم ترَ،

٧

وحدثتنى نفسى : من الأفضل أن تنزل بها جسدا عاريا حيا يرفرف من الرعب بدلا من أن ترفع الأنقاض عن الجسد المحطم وبدلا من أن تتناثر أعضاؤه فتجمع من كل ركن قطعة ٠

وهل كنت أنانيا يوما ما ، لأقفز من النافذة وحدى ؟

وأتركها ! هى التى استقبلتنى حين عدت ، رفعت هدومى المخلوعة عن السرير ، وأحضرت لى الجلباب الأبيض النظيف ، وفرشت الجريدة المطوية التى ركنتها فوق الوسادة ، ووضعت عليها بقايا طبيخ الأمس وقالت : معرفتش أجيب سمك . الجمعية مووت ٠

وعدت من الصالة أجفف وجهى بالفوطة ، وجلسنا معا ، نبلع اللقم، واحساس بالفراغ يلاحقنا دوما ، فهناك الرغبة المزمنة ، ان تمتلىء هذه الفراغات الممتدة بين فخذينا المربعين بأولاد صغار ٠

فولدنا الوحيد استطاع ــ قبل أن يموت ــ الزحف من حجر أمه ، ليعارك ورق الجريدة ، ويمد يده الصغيرة الى الأطباق ، وكنا نهشه بدعة ، وتنظر الى وأنظر اليها بفرح ، ها هو الولد يشاكس من أجل الوصول الى الطبق ونحن نمنعه ، وأمه تهدئه ، فتقطع له لقمة صغيرة من الرغيف وتبلل أطرافها من أحد الأطباق ، وتمدها الى فمه الذى يفتحه بغشم وتقول : هاااام ٠

بعد أن حمدت الله ، ودعوته بأن يديم النعمة ويحفظها من الزوال ، قمت لأضع الفحمتين على وابور الجاز ، وأغير ماء الجوزة، وفتحت ورقة السولفان الحمراء ، وقطعت منها حجرين ، يحركان الدم ، ويشعلان الرغبة العارمة ، دخنت ، وشربت كوب الشاى الذى صنعته . وطلبت منى اسبرين ، وقالت : دماغى حتنفجر ٠٠ الشمس خبطت فى راسى ساعتين فى الطابور ٠

وبحثت فى جيب القميص ، لأخرج لهـا قرص الأسبرين ، فقلبته مع قليل من الشاى فى قعر الكوب .

بعدها أغلقت شيش النافذة المفتوحة على السرير ، وركنت ظهرى على الوسادة أستمتع بالنور الهادىء.وبالرطوبة الخفيفة وأستمع للدم الصاخب فى عروقى ، حتى زحفت الى الفراش وتمددت الى جوارى بعد أن حلت منديل رأسها وتركت شعرها مفرودا حول صدغيها .

وزاد صخب دمى لما تحركت اليد الى صدرها الذى دفق بياضه خارج حدود المشد ، وفعلنا كما يفعل النـاس ، ونمت راضيا عن نفسى وعن الدنيا ، وقلت : الحمد لله ، بست ظاهر يدى ، وقلت : لا تطمع .. بكرة يعدلها .

نعست بعمق حتى سمعت الضربة القوية وصوت الانهيار ، كأن الدنيا بدأت تنهدم ، أو كأن القيامة قد قامت ، فى البداية فكرت أن الترام خرج عن شريطه ودخل فى جدار البيت .

ولكن صوت الأحجار التى تندفع الى باب حجرتى نبهتنى بأن ما يحدث « هنا » فى شقتى ، بالدور الثالث من البيت القديم بكوم الشقافة . حاولت أن أفتح الباب ، فلم ينفتح الا بصعوبة ، كانت بعض الأحجار قد تراكمت خلفه ، جعلت أحذفها حجرا حجرا ، فانفتح الباب ، ورأيت السماء تسقف الصالة ، والحجرة الصغيرة التى تملأ فراغها بالنملية والترابيزة وأوانى الطبخ وطست الحمام وأشياء كثيرة صارت جدرانها فى الشارع ، ورأيت من خلالها الدكاكين والاعلانات والعمارات المقابلة والناس المزدحمين على الأرصفة ينظرون الى أعلى ويصرخون : أنزل .. أنزل من الشباك ، قلت أين سعدية زوجتى ؟

وسمعت صوت وابور الجاز فى الحمام ، ويدها خارجة من تحت

الباب تدفع الأحجار ، فتحت عليها الباب فجأة ، فصرخت ، ودعكت الصابون عن وجهها ولما رأت الفراغ الذى أرفعهـا اليه ، رفست برجلها ، وصوتت بآخر ما عندها : يالهوى ٠٠ رفعت الملاءة التى كنت أغطى بها جسدى ولففتها حول جسدها العارى ، وعلى ركبتى زحفت لأنظر من النافذة المطلة على الزقاق ، فوجدت رجل المطافىء يتسلق السلم الحديدى الطويل رآنى فأشار الى : أنزل ٠٠ هات ايدك ٠

قلت : معى زوجتى ٠

قال : طلعها الأول ٠

وحملت الجســد الخجــلان الملفوف فى الملاءة ، كانت ترفس برجلها ، وتبكى غارسة أسنانها فى كتفى ، وخبطتنى على صدرى بكلتا يديها صارخة : لا ٠٠ لا ٠

وحقدت على العيون المحملقة،حين طالعت الجسد علاها الابتسام الخفى ورأيت الأولاد يتدافعون بالأكتاف ، ويشبون على أقدامهم ليروا بشكل أفضل وأنا الملم أطراف الملاءة على صدرها المبعثر ، وحول البطن وعلى الفخذين وأمد يدى الى رجل المطافىء ليلمها بذراعه على صدره ، ثم انزل أنا بظهرى ، جاعلا أطراف الجلبــاب بين أسنانى مبعدا نظرى عن وجوه الناس ٠

١٩٨٢

العقـاب

لم يعد من الممكن أن أحبس البول أكثر من هذا ، نفضت البطانية السوداء عن جسمى الدفآن ، وقمت أمشى بين الأسرة التى يتمدد عليها الأولاد ، واتجهت خارج الخيمة المظلمة ، رفعت « الكنار» فقاجأ عينى النور القوى المنتشر على الصحراء الممتدة ، فككت أزرار السروال ، ووقفت أرش الماء على العجلة السميكة لعربة « البراجا » الواقفة كجبل من حديد اقتربت من الكاوتش حتى أكتم الصوت ، فلا يسمعنى الصول « على » النائم داخل العربة ، واضطرب البول فغرق سروالى ويدى حين سمعت الصوت الذى ينادى ، كان العقيد « عبد القادر » مرتديا « ترينج » أصفر واضعا الفوطة حول رقبته ، أدخلت بشرى على عجل ، وصحت : أيوه يا أفندم . قال بحنجرة مرتخية الأحبال : صح أولاد القحبة ،واجمعهم هنا ، قلت : حاضر يا أفندم .

وعدت الملم نفسى ، والبول المحبوس داخـلى يؤلم فخذى ، وسمعته يشتم ويغمغم بضيق وفهمت أنه استيقظ فوجد « جراكن» الماء فارغة ، دخلت الخيمة الباهتة الضوء ، وبدأت أرفع البطاطين عن الأجسام المستغرقة وأقول : أصحوا .. نهاركم أغبر .

قاموا يفركون عيونهم بجوانب اليد ، وركن البعض على جنبه فوق الوسائد والبعض الآخر ظل مستغرقا فى النوم ، قال عبد المنعم: فيه ايه ؟ ـ سيادة العقيد بره .. وقال لى اجمع العساكر . وقال

صلاح : اصطبحنا ·· هو مش لاقى شغلانة · قلت : الظاهر صحى ما لاقاش ميه ·

قال عبد المنعم : نهارك حابك يا حماد ، وراح يزغده فى جنبه، وانتفض حماد وقام واقفا على السرير ولقصره لم يصل رأسه سقف الخيمة ، ثم نزل يبحث عن حذائه الكاوتش أسفل السرير ، ورأينا رأس العقيد ، واندفعنا الى الخارج ، ووقفنا مهملين · الستر خارج السراويل والأحزمة مدلاة لم يسعفنا الوقت لربطها ، وبعضنا نسى « الباريه » فوقف بشعره المنكوش ، والشمس كانت فى وجوهنا فضيقنا العين لنقدر على مواجهة الضوء ·

بالأمس استيقظ صلاح بعد القيلولة ، وفتح سرواله فاندفع بشره متصلبا ، أمسكه بيده وقال : كنت لسه مع البنت اللى شفناها فى فيلم مبارح · فقال عبد المنعم : هو كل فيلم تشوفه تعملنا الحكاية دى · وخلع الكاوتش من قدمه ، وجعل يهزه فى الهواء وقال : أنا أؤدبه لك ، وهجم عليه يضربه تحت بطنه وصلاح يصرخ ويلم سرواله ويحمى ما بين الفخذين بكلتا يديه ، وجرى خارج الخيمة ليختبىء ، بعد فترة سمعنا صوت مـاء يدلق بالخارج ، فقال عبد المنعم ابن الكلب بيستحمى ·· والنبى ما أهنيه · وقال حماد : حيخلص الميه ·

وسرنا على أطراف أقدامنا لنأتى من خلف صلاح الواقف بجسده العارى ، كان الصابون يغطى شعره ووجهه ، وهو يعمل بالليفة فى كل جزء ، ويرفع الماء على رأسه فتسيل الرغاوى من كتفه لتتمطى فى قناة الظهر لتصل الى ردفيه الضخمين المشعرين ، رفع عبد المنعم حفنة رمل ونثرها على جسد صلاح فصرخ وهو يدعك عينيه يريد أن يبصر فلا يستطيع ، واندفع حماد هو الآخر يحفن الرمل ، وحوصر صلاح بقذائف الرمل ، فجرى عاريا ، والأولاد يجرون خلفه ، ينثرون عليه من تحت أقدامهم ، والصول على والضابط محمد كانا يقفان عند

« الهنجر » يضحكان وصلاح يجرى بين النبات الأخضر السـميك الطالع فى الأرض الصفراء حتى تعثر فى نبتة عالية فوقع عليها مفرجا ساقيه الى أعلى ونحن نضحك حتى طفر الدمع من العيون وأخيرا سحبناه جهة الخيمة ، وأخرج عبد المنعم « جيركن » الماء الموجود بالخيمة وبدأ يصب عليه ليزيل الرمل ، قال حماد : دى مية العقيد · قال : العقيد فى مطروح عنده سهرة ·

خرج الصول على من العربة « البراجا » كان فى البيجامة الميرى البيضاء وشعره الرمادى كان مشعثا ، وقدماه تدوسـان الصـندل المفكوك الأبزيم · سأل : فيه ايه يا أولاد ؟ فظهر العقيد خارجا من الخيمة ، وقال له : صباح الخير يا على · انزل يديه الى جنبه وقال : صباح الخير يا أفندم · وكشر فى وجوهنا وقال له العقيد : خذهم على مكتبى على ما اجيب الحلاق ·

وذهب ليدير العربة الجيب الواقفة هناك عند المكتب ، والصول على صاح بقرف : للخلف در ·

وجدنا الضابط محمد واقفـا على البـاب يربط حزامه جاعلا « البريه » فوق عينيه والضابط سلامة لم يزل فى بيجامته الملكى يطل من النافذة ، كان يبتسم وأسنانه الصفراء المهشمة بادية تحت شاربه الأبيض ، والضابط محمد كانت عيناه تبتسمان خفية تحت « البريه » ·

وقفنا فى صف أمام المكتب فى مواجهة الشمس ، قلت فى نفسى لو يديرنا للخلف فترتاح عينى للرؤية ، وذهب الصول عـلى نحو الضابطين ، ووقفوا يتحدثون بصوت خافت ومن حين لآخر يلتفت الينا ويزعق : انتباه يا عسكرى أنت وهو · ونحن لا نصدق ، فهذه أول مرة نتعرض لعقاب جماعى ، وأنا وقفت متضايقا من الشمس غير مصدق اننى سأخسر شعرى لتصبح رأسى بلاطة،ستكون هذه الحلقة هى المرة الثانية التى يهان فيها شعرى،كانت المرة الأولى فى منطقة

التجنيد ، أسلمونا الى ورشة الحلاقة ، وهناك قام العسكرى الحلاق بتمرير الماكينة وسط الرأس تماما ، وقال : عشان تبطلوا خنافس ٠ وأنا كنت اعتز بشعرى ، فهو يميزنى عن باقى الأصدقاء ، كان يكفى لشخص لا يعرفنى أن يشير بكلتا يديه ، وكأنه يقول للآخر الذى يتحدث معه : انك تعرفه ٠٠ ذلك الشخص بالشعر الخشن الطويل ٠ ويهز رأسه ويقول : آه ٠٠ عرفته ٠

والصورة التى اعتز بها ، تلك المعلقة بحجرة الجلوس . فيها الشعر يغطى أذنى وأبدو فيها وسيما بسحنة بوهيمية ، وعريس أختى حين تقدم لخطبتها ، طلبت منه أن يطيل شعره القصير فرفض وقال لماذا تريديننى مثل أخيك ٠ ثم اننى غير مقتنع به ٠ وصار يكرهنى ، وكل مرة نلتقى فيها كان يقنعنى بأن التشبه بالمرأة مكروه فى الدين وأرد عليه بالحديث : بارك الله فى الرجل المشعر ٠

وهناك فى الظلمة الكامنة خلف درانا ، كنت التقى بجارتى ، وحين ينتهى الكلام ويلتهب الحب أميل على صدرها لأقبل بياضه المضىء فتدس أنفها فى شعرى ويغطى وجهها ، وتقول بدلال : شعرك بيشوكنى ٠ فأقول لها : أحلقه ؟ فتعصرنى بين يديها ، وتقول: لا ٠٠ اننى أحبه ٠

انتبهت على صوت الضابط محمد الذى اقترب من أذنى ليهمس لى : معلش ٠ ٠ أوامر ٠ قلت : ولا يهمك ٠٠ حلقة تفوت ولا حد يموت ٠ وقال : النهاردة عندنا « ميس » قلت : عارف ٠ وقال : انت العسكرى المؤهلات الوحيد فى الفرع ٠٠ وما حدش يعرف يضبط المخزن غيرك ٠ قلت : حاضر ٠ ابتسم وربت على ظهرى ، ثم قال : مكتوب لك تبدأ الميس من غير رأس ٠ وضحك الأولاد ، وقهقه الضابط سلامة ، وظل وجه الصول على جامدا ، وناظرا الى بحقد ٠

انضبطنا جميعا في وقفتنا لما سمعنا صوت الموتور الهادر ، فرملت العربة الجيب فجأة ، ونزل منها العقيد ، ونزل من الجهة الأخرى عسكرى يلبس بيادة قديمة ومفتوحة من أمام ، تضطرب فيها أقدامه ، وتثير الغبار من حولها ، وكان وجهه ساذجا عليه ملامح حلاق القرية ، وأنفه برق بنسائل شفاف على أطرافه ، نزل السلم المصنوع من أكياس الرمل الصغيرة ، والفوطة البيضاء بين يديه معقودة على العدة ، ركنها على الأرض حتى عاد بكرسى من مكتب الضباط ، والعقيد دخل الى مكتبه بعد أن صبح على الضابطين ، وطلب من الضابط محمد الاشراف على الحلاقة ، ويأتى اليه بكل عسكرى يتم حلق رأسه ليتأكد بنفسه ·

وضع الحلاق الكرسى أمام الباب ، وانحلت عقدة الفوطة ، فبدت العدة : الصدئة مكومة ، والأولاد بدأوا يتدافعون بالأكتاف ، وينتظرون غفلة من الضابط محمد ليبدلوا أماكنهم ، وحسمت أنا الصراع حين شاورت نفسى وتوصلت الى أنه لا فائدة ، الحلق سيتم أكيـد ، سواء كنت الأول ، أو كنت الآخر ، فأنا خسرت شعرى ولا جدال ....

فتقدمت الصف ، نظر الضابط محمد فوجدنى واقفا فى الأول ، ابتسم وقال : أنت بطل .. تعال ·

واقعدنى على الكرسى فارتاحت عينى للظلة ، ورأيت بوضوح الأرض الممتدة ، والنبات الأخضر الشيطانى متناثرا عليها ، تحوم فوقه طيور صغيرة تشبه « أبو فصادة » كانت ترجع أصواتا عذبة كالتى تأتينى من نافذة دارنا عند الفجر ، والحلاق عقـد الفوطة فى عنقى ، ودفس رأسى فوقها ، وبدأ يعمل بالمقص واحساسى بالمهانة توارى وراء محاولتى العنيفـة الكتم الضحكـة كلما واجهتنى عيون الأولاد ·

● عكس الريح

شوارع المدينة التى ينتشر الرمل فى سمائها كانت مضيئة ، يسير فيها الناس بسحنهم اليومية ، لااندهاش ، ولا ترقب ، والبقر السمين يمشى ظليقا بدون أخطام ، والرجال يسوقون النعاج عائدين من المراعى القريبة ، لم يلتفتوا الى رتل السيارات الميرى الذى يخترق الشوارع فى صفوف ولم يهتموا بالأخبار التى اذيعت عن اغلاق طريق الصحراء الغربية ، وكنت أمشى بينهم فرحا بحرية اللبس الملكى ، أبحث عن حانة « بنايوتى » التى سمعت عنها كثيرا ٠

وكنت أتوقع انفجارا بشريا فى كل لحظة ، وطمأنت نفسى : ربما لأن مطروح بعيدة ، قد يحدث هناك فى المدن الكبيرة ٠

وتراجعت عن فكرة البحث عن الحانة ، وقلت : اذهب الى « البنسيون » قد أجد « فتحى » هناك ، و« فتحى » ابن هذا البلد ، تعرفت عليه عند التحاقى بالفرع ، وصحبنى فى رحلات الفرق المسرحية التى زارتنا ، واقترب من ممثليها ، وعرض عليهم نصوصه التى يقدم بعضها على مسرح المحافظة ، وهو يعيش فى « البنسيون» المطل على البحر مع أصحاب له ، والحديث معهم قد يلم شتات النفس ، وسأعرفهم بأننى على سفر ٠

فى الشارع الساقط من جهة البحر ، دفعنى الهواء بشدة الى الوراء ، ونفخ الجاكت الخفيف الذى ألبسه ، ونكش شعرى

المرجل ، لمته بأصابعي وقاومت الريح عازما على تسلق المرتفع المسفلت ، على قمته كان « البنسيون » ساكنا ، والمصابيح المعلقة على سوره ترمى ضوءا ينام على الرمل متقلبا مع هزة الريح ·

كان الباب مفتوحا ، ولا أحد فى الطرقة المفروشة بسجاد طويل أحمر ، نقرت على بابه بظهر السبابة فخرجت امرأة من الباب المجاور تجمع شعرها فى اشارب أصفر ابتسمت لى ، وانتعشت لما رأيت ثوبها الشفاف وصدرها المفتوح الذى سترته باصبعين · سألتها :فتحى موجود ؟ قالت : لا ·· تفضل · قلت وأنا راغب فى العودة اليها : شكرا ···· « حرجع له تانى » ·

وحدثت نفسى : لو تتهيأ لى ليلة حرة ، أدفن فيها وجهى بين ثدى هذه المرأة المرحبة فى فراش لين غائص الى الأرض ، ليلة تزيل عن عينى رواسب حياة الجند المنضبطة ، وتمسح غبار الرمل المكثف فى حلقى ·

وسرت فى الشارع والمرأة أمامى تدنو وتبعد ، ترتعش صورتها بين المصابيح الغافية تخرج الآهة الممزوجة بهدير بحر ينظر بشراسة من خلف زجاج نافذة مغلقة · وواصلت الحديث مع نفسى: سأمحو من مشاهد عينى صورة العقيد زير النساء الذى ينام مع ممثلات الفرق المسرحية وينزل « مطروح » كل أسبوع لينام مع صاحبة كازينو « بوسيد » ·

والصول هذا الجاهل العنيد ، من الغد ستنكسر سطوته ويبقى فى صحرائه هذه لتنمى جهله ، كم كان يكرهنى هذا الرجل ، قضيت معه أيامى كلها ، ولم يرفع كوعه من جنبى كأنه فى كل مرة يريد أن يقول : ابق هنا أنت لا تعرف شيئا « طظ » في شهادتك ، هذا الجيش مملكتى وأنتم متطفلون عليه ·

كانت السيارات ما تزال تسير في صفوف ،وبدأت أشعر بالجوع يتمطى داخلي قلت:اذهب الى مطعم « الحرية » أتناول العشاء وأشرب البيرة فقد أراد الله أن أختم ليلتي الأخيرة على هذه الشاكلة ·

كان المطعم نهارا كاملا ، لمبات النيون على الباب وبالداخل توزع نورا أبيض على المناضد المفروشة بمشمعات مزخرفة بورد كبير وعلى القيشانى المصفوف على الجدران ورائحة بخور تنطلق من عمود أسفل مروحة كبيرة تدور فى كسل ، وهناك بعض الرجال المنشغلين بالطعام وبالنظر الى التليفزيون المرفوع فى ركن و« أم كلثوم » تغنى مهللة « بالسلام أحنا بدينا بالسلام » وصور كثيرة تترى لمصانع ومزارع وأنهــار وجنــود يقطعهــا من حين لآخر صورة الرئيس الضاحكة ·

اتخذت مكانى على منضدة فى مواجهة الباب وكنت استطيع أن أرى التلفزيون بجنب ، وجاءنى الجرسون بجاكتته البيضاء بيده كهنة راح يمسح بها على المشمع ومال بأذنه على فمى فقلت : ربع كباب وبيرة ·

فصاح بالطلب لزميله الواقف وراء الأسياخ،وسمعت الرجال يتكلمون ، قال أحدهم : حينقلوها بالقمر الصناعى · وقال الآخر: نتعشى ونروح نشوفها عـلى قهوة « العوام » · قلت هكذا تنتهى الأمور ·

وتذكرت أول صورة رسمتهــا فى المدرســة الابتدائية كانت لفلاح يرفع شومة غليظة بيد واحدة يهوى بها علىرأس جندى ساقط بالبراشوت المتراخى الاحبال ولم أنس أن أضع عــلى وجه الجندى ملامح الرعب وان أخط نجمة داود على الخوذة ولم أنس أن أجعل يد الفلاح قوية نافرة العضلات وعملت الكثير من الطيارات الصغيرة المحومة كالذباب هناك فى خلفية الصورة ، كم فرحت بها مدرستى.

شاركتنى فى تلوينها ، وشاركتها فى تثبيتها على الحائط الى جوار السبورة ·

لمحت « فتحى » من باب المطعم وحين ظهر من النافذة الجانبية ناديت عليه : فتحى · وتوقف عن جريه ، ونظر جهة الصوت ، ولما رآنى أقبل على ، قال بتعجل : بتعمل ايه هنا ؟ قلت : رحت لك البنسيون · قال وهو يخبط كفا على كف : ولا على بالك ·

قلت وأنا أعود الى الكرسى : فيه ايه ؟

ـ قم رح الوحدة ·· التحريات مالية البلد ·

ـ أنا دفعة ابريل ·

ـ بتلم الكل ·· فيه حالة طوارىء ·

ـ أنا حسلم المخلاة الصبح ·

ـ جت اشارة ان الكل يرجع ·

سألته واحساس بالفجيعة يتصاعد داخلى : ليه ؟

ـ خايفين ليبيا تعمل حاجة ترد بيها على توقيع المعاهدة ·

وسحبنى من يدى لأقوم قلت : أنا طلبت عشا ·

ـ تعشى هناك ··

ـ وأنت ؟

ـ رايح البنسيون ·

وطلبت منه أن يأخذنى معه قال : مش ممكن ·· أنت حتطلع على « برانى » من الصبح · تركنا الجرسون واقفـا بالطبق الذى يخرج دخانا خفيفا ، وهو ينظر الى بحسرة وعدت اليه قلت : حطهم فى ساندوتش ·

وتركنى فتحى أسير وحيدا تحت جدران البيوت . ورتل السيارات لم ينقطع ظل يهدر فى الشارع الكبير بصوت جنزيرى يهز المدينة ، وكان الجنود منكمشين فوق مدافع مغطاة بمشمعات سميكة ، وكانوا ينظرون بحزن وفى نفوسهم رغبة فى النزول الى هذا البلد ليشربوا الشاى السخن على مقاهيها ويدخنوا سيجارة على أرصفتها الهادئة ٠

وصلت باب القيادة ، ورأيت الحارسين واقفين بتحفز ورفعا السلاح فى وجهى قلت : أنا ٠ فعرفنى واحد منهما قال : كنت فين ؟

ـ اودع أصحابى ٠

ـ ودا وقت أصحاب ٠٠ أدخل ٠

وتركت السيارات تمشى فى طابورها بمحاذاة سور القيادة متجهة أقصى الغرب كانت تودع فى أطراف السور آخر المصابيح المضيئة ، بعدها تسقط فى الظلمة فتتلاشى ملامح الجنود الراكبين عليها ويبقى شبح السيارات كتلة كثيفة من الظلام لها بوز طويل يرتفع أعلاها فتصير كقطيع من الفيلة السوداء التى تقرقع سيقانها فى جنازير الحديد ٠

دخلت وكنت حريصا على الاختفاء فلا يرانى أحد من الضباط، وهالتنى ظلمة الأبنية الواقفة فى وضع انتباه ، يدها فى جنبها ورأسها مرتفعة فى السماء وعينها مفتوحة على آخرها ولكنها لا ترى شيئا على الاطلاق لا ترى غيرى ، وتكتم ضحكة السخرية فى عبها٠

عند باب الفرع سقط على وجهى بصيص نور ضعيف ينفذ منه ولما فتحت الباب وجدت أجسادا مكدسة تحت البطاطين السود وسمعت شخيرا مرتفعا يتردد فى جنبات الحجرة ورائحة نوم

مختلطة برائحة جوارب نتنة ، دفعت البيادات المفغورة الأفواه وبدأت أبحث عن مخلاتي التي دسستها تحت السرير لأخرج بيجامتي وبعد أن علقت اللبس الملكي على المسمار قعدت على الأرض آكل الساندوتش وبعد أن انتهيت رحت أبحث عن مكان ، دفعت العسكري النائم على الطرف فاستيقظ مرعوبا تتدفق من عينه حمرة بلون القمر المخنوق وقال : رجعت ؟

ـ وسع .

ـ سيادة العقيد اتصل وقال كله يرجع .

ـ وسع .

فتزحزح نحو الحائط ورفعت البدن الثقيل وتمددت الى جواره وظللت لفترة طويلة لا أرفع عيني عن المصباح الصغير المعلق وسط الحجرة كصفار البيضة .

١٩٨٤

فهـــرس

القسم الأول

صفحة

القسم الثانى

القسم الثالث

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحى غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	ابو المعاطى أبو النجا	٣
● بالامس حلمت بك	(قصص)	بهاء طاهر	٤
● رباعيات	(قصص)	شكرى عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٧
● رشق السكين	(أقاصيص)	محمد المخزنجى	٨
● وعلى الأرض السلام	(رواية)	فاروق خورشيد	٩
● الأشواق والأسى	(قصص)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● أن تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقنى وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الأخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(رواية)	ادوارد الخياط	١٥
● حصار القلعة	(م. شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
● أربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٧
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٨
● انا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
● الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(قصص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار	٢٨
● تسلق الجدار الأملس	(قصص)	حسنى عبد الفضيل	٢٩

الأعداد الممتازة القادمة

● المعذبون فى الأرض	(رواية)	طه حسين
● خيوط العنكبوت	(رواية)	ابراهيم عبد القادر المازني
● ابراهيم الثانى	(رواية)	ابراهيم عبد القادر المازني
● نائب عزرائيل	(رواية)	يوسف السباعى
● فساد الأمكنة	(رواية)	صبرى موسى
● قصص مختارة	(قصص)	يوسف ادريس
● الجبل	(رواية)	فتحى غانم
● قصص مختارة	(قصص)	يوسف الشارونى
● أغنية الرياح الأربع	(دراما شعرية)	على محمود طه
● أيام الانسان السبعة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم
● بحيرة المساء	(رواية)	ابراهيم أصلان

تطلب كتب هذه السلسلة من

● باعة الصـــحف ● مكتبات الهيئة ● المعرض الدائم للكتاب

● معارض الكتاب بداخل مصر والخارج ● مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤١٥٣/١٩٨٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٣٩٠ ـ ٥

مختارات فصول

تصدر أول كل شهر

ببساطة وإحكام ، وبإحساس متفجر مكظوم وحيوية نادرة محبوكة ، يلتقط يوسف أبو رية ويرسم صور الحياة العادية والمدهشة معا ، ليكتب « عن » قريته ونفسه ، أو بطله ، ويكتب لهما وفيهما . ولكن « عكس الريح » ليست رواية كما أنها ليست مجموعة من القصص . إنها صور الحياة التى عاشها عشرات الصبية - فى قريتهم - مع اللعب والخوف والأبوة والأمومة والجنس والموت والعمل والمصادفة ، ومع القانون - الوضعى أو الكونى - الذى لا يبدو أن له علاقة بتلك الحياة ولا بانشغالات أطفالها ، رغم أنه لا ينطبق على شىء مثلما ينطبق عليهما معا : كأنها - الحياة وانشغالات أهلها - المادة الأولى التى انبثق منها هذا القانون ولم يكتشف - بعد - فيها !

إنها صور تحكى جميعا على لسان واحد من هؤلاء العشرات ، فيصبحون هم الواحد ويصبح هو الجميع : كأنهم يشتركون فى ذاكرة واحدة ، مثلما اشتركوا فى ذات الألعاب والمخاوف والمغامرات والأسرار . يتطابق حكى أبو رية مع ما يحكيه ، كأنما حدث هكذا : محكيا ومعاشا . بلاغته هى هذا التطابق البسيط مع الحقيقة بكل طبقاتها . . أو بكل حلقات جذعها الخشن الداكن الريان : إنها نوع متميز من بلاغة الحساسية الجديدة - التى ما تزال - تتخلق - ولم تكتمل بعد - كالحياة التى تعود بهذا الحكى إلى الحياة !



الهيئة المصرية

٥٠ قرشا